أحمد صبحي

حياة زكريا عليه السلام

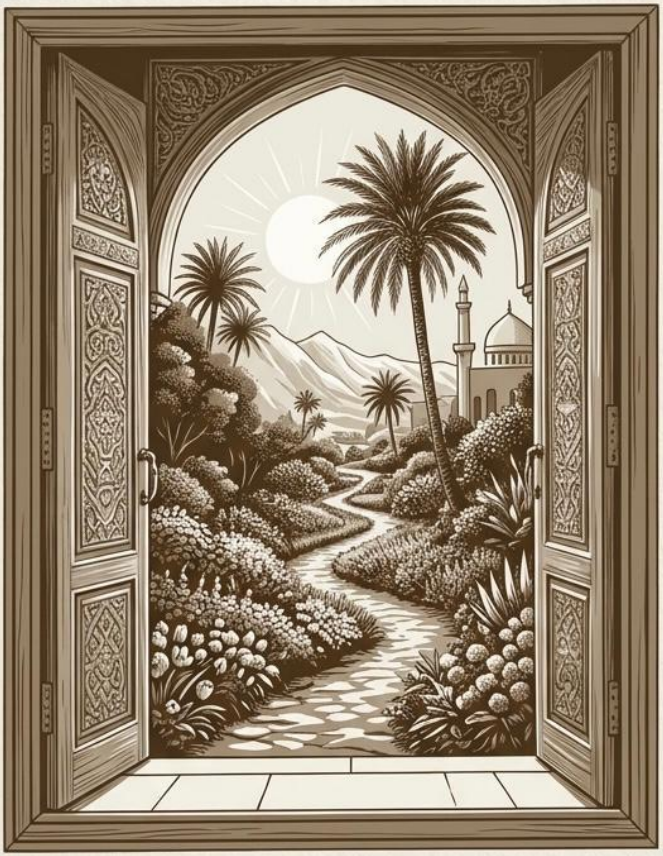

دُعاؤُهُ . . تسَبيحُهُ . . مُسارَعَتُهُ في الخيراتِ

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

المقدمة ؟!..

كلُّ بقعةٍ على هذهِ الأرضِ تحكي عن قادةِ الدنيا الأفاضلِ.. الرجال الذين سَحروا الناسَ بأخلاقِهِمُ السمحاءِ.. وعلَّموهم عزةَ الإسلامِ وعظمةَ الإيمانِ.. وعلَّموهم أنَّ سلاحَ المؤمنِ الحقيقي وسرُّ قوتهِ الخفية هو الدعاء.

الذينَ اصطفاهُمُ اللّهُ من بينِ الناسِ.. واتخذَ منهُمُ الخليلَ والكليمَ والحبيبَ.. واستأمنهُم على عبادِهِ ليرسلَ معهُم رسالاتِهِ.. وكانوا أحقَّ بها وأهلًا لها.

الذينَ تقطرُ الحكمةُ من أفواهِهِم كلما نطقوا.. وتنزلُ الرحمةُ على مجالسِهِم في أيِّ مكانٍ جلسوا.

الذينَ أُيِّدوا بالملائكةِ وبصالح المؤمنينَ.. خيرُ الناسِ في الدنيا.. وملوكُ الدرجاتِ العُلا في الآخرةِ.

كُلُّهُم أثنى القرآنُ على علاقتِهِم باللّهِ.. تلك العلاقة التي هي مربطُ الفرسِ.. سرُّ الفلاح.. ومفتاحُ القلوب.

كانوا إذا وقفوا بينَ يدي اللّهِ.. خلعوا تيجانَ الاصطفاءِ.. وأسقطوا أوسمةَ القربِ التي منحهم اللّهُ إيَّاها.. ووقفوا في مقامِ العبوديةِ الخالص.. لا يتكئونَ على نبوّةٍ.. ولا يحتجّونَ بكرامةٍ.. بل يقفونَ كما يقفُ أفقرُ عبدٍ بينَ يدي سيده.

ويقولون بمنتهى التواضعِ:

اللهم أنتَ الغنيُّ ونحنُ الفقرَاءُ إليكَ.. أنتَ القويُّ ونحنُ الضعفَاءُ إليكَ.. أنتَ العزيزُ ونحنُ الأذلَّاءُ إليكَ.

اللهمَّ يا واصلَ المنقطعينَ أوصلنا إليكَ.. اللهمَّ هبْ لنا عملًا يقرِّبنا إليكَ.. يا اللّه.. يا رحيم.

ولكن..

أيستغفرونَ وهمُ الأطهرونَ؟ أيطلبونَ العصمةَ وهمُ المعصومونَ؟ والنصرَ وهمُ المنصورونَ؟

أَكِبَارُ الناسِ على الإطلاقِ وأكملُهُم يسألونَ عن ملحِ الطعامِ.. وخسفِ النعالِ.. كما يسألونَ عن انقلابِ السننِ الكبارِ؟

كيفَ يرفعونَ أكفَّ الضراعةِ.. كأنَّهُم أكثرُ الناسِ فقرًا وحاجةً.. وليسوا أنبياءَ معصومينَ مؤيَّدين؟

كيفَ لمن مَلَكَ الدُنيا والآخرةَ.. وعلمَ أنَّ اللّهَ اصطفاهُ رسولًا إلى الناسِ.. وأنَّهُ على الحقِّ.. وأنَّهُ في الجنةِ مَلِكٌ وأميرٌ.. أن يشعرَ أنَّهُ مُحتاجٌ ويقِفَ هذا الموقِفَ الذليلَ المسكينَ.. ويرفعَ يدَيْهِ إلى السماءِ أو يضعَ وجهَهُ على الأرضِ ليسألَ رب العالمين.. ويكونَ دعاؤُهُ صادقاً نابعًا من قلبِ قلبِهِ؟

ألا إنَّ هُناكَ سرًّا كبيرًا.

لا شكَّ أنَّهُم يعرفونَ الحقيقةَ..

ولا شكَّ أنَّهُم لم يملكوا بقلوبِهِم ما ملكتْهُ أيديهِم.

انظرْ إليهِم.. يقفونَ في الدعاءِ وهم على علم أنَّ النفسَ لا تُؤتَمَنُ.. وأنَّ المُلكَ لا يُضمَنُ.. وأنَّ السيفَ لا يحمي.. وأنَّ القدمَ لا تنهضُ للصلاةِ إلا إذا أُذِنَ لها.

هذهِ هي الحقيقةُ العظمى.

إنْ مُلك السيف.. لا يُملَكُ النصرَ.. وإنْ مُلِكَتِ الزوجةُ والأهلُ.. لا يُملَكُ الرضا.. وإنْ مُلِكَ البدنُ.. لا تُملَكُ الصحةَ.. وإنْ مُلِكَ العلمُ بالإسلامِ.. لا يُملَكُ التوفيقَ فيهِ.. وإنْ مُلِكَ المالُ.. لا يُملَكُ الغنى بهِ.. وإنْ مُلِكَ أيُّ شيءٍ.. لا يُملَكُ القناعةَ بهِ.. ولا يُملَكُ دوامَهُ.. ولا حسنَ التصرفِ بهِ في مرضاةِ اللهِ.

فرفعوا أيديَهُم.. طمعًا في توفيق اللهِ.. وطمعاً فيما عندَ اللهِ.. وخوفًا أن تُسلَبَ النعمُ إن لم يُحسنوا.

ووضعوا جباههم على الأرضِ.. ليحفظوا ما هُم فيهِ من العزِّ بالافتقارِ.. ويدعونَ بالتوفيقِ فيما تؤولُ إليهِ الأمورُ.

فيدعو النبيُّ وقلبُه فارغٌ من كلِّ مُلكٍ ومن كلِّ عزّ.. مُتعلقٌ بأنَّ كلَّ ما عندَهُ كانَ وسيظلُّ عاريةً من اللهِ.. مؤقتةً.. ليست ملكَهُ.. مستردةً في أيِّ لحظةٍ.. وتُسحبُ من غيرِ اعتراضٍ.

لا العقلُ ملكَهُ.. ولا القوةُ ملكَهُ.. ولا الصحةُ.. ولا الإيمانُ.. ولا الزوجةُ.. ولا الأهلُ.. كلُّ ذلكَ مُعارٌ.. وهذا هو سرُّ الدعاءِ.

هم لا ينظرونَ إلى ما عندَهُم على أنَّهُ يُمتلَكُ.. بل أمانةً تُستودَعُ.. تُسلَبُ إن غفلَ القلبُ لحظةً.

يرون الغنى عطيةً لا ضمانَ لها.. والقوةَ ظلًّا يزول.. وكلُّ شيءٍ من الممكنِ أن يُسحَبَ في أيِّ لحظةٍ.. إلا أن يتغمدهُمُ اللهُ برحمتِهِ.

فعلموا أن كلُّ شيءٍ في يديه.. كل شيء.. وله على كل شيء تمام السيطرة.. وأنَّهُم في الحقيقةِ فقرَاءُ إليهِ حتى لو فاضتْ خزائنُ الأرضِ من بينِ أيديهِم.. وأنَّهُم حقًّا لا يملكونَ لأنفسِهِم نفعًا ولا ضرًّا.. ولا يملكونَ الثباتَ.. ولا يضمنونَ النجاةَ.

ومن كانتْ هذهِ نظرتهم إلى هذه الدنيا لا يستغنونَ عن اللهِ لحظةً.. بل لا يزالونَ في عبادةٍ ودعاءٍ.. ليحفظَ اللهُ لهُم ما أقرضهُم إياه.. ويوفِّقهُم إلى حسنِ التصرفِ فيه.

لأنَّهُم يعرفونَ مدى هشاشةِ الإنسانِ إذا تُرِكَ لنفسِهِ.. ويعرفونَ المصيرَ الذي ينتظرُ من يستغني.

لا أمانَ إلا مع الدعاءِ.. فالعمرُ دونَ اللهِ ظلماتٌ.

ما أقرضنا إيَّاهُ هو الذي أذِنَ بهِ أولًا.. وهو الذي يحفظُهُ.. وهو الذي يوفِّقُ فيهِ.. وهو الذي يُرضينا بهِ.. وكل ذلك يحتاج إلى دعاء.

الصباحُ الذي لا يبدأُ بذكرِه ودعائه.. لن يُرضيكَ مساؤُهُ.

وإن مُلِكَتِ الأسبابُ.. لا يُضمَنُ عملُ الأسبابِ.. ولا نتائجُ الأسبابِ.

ومن لم يحسن العبادة والدعاء.. يكون على حافة الفقد والخسارة.

ومن لم يسألِ اللهَ يغضبْ عليهِ.

وإذا انقطعَ الدعاءُ.. انقطعَ القلبُ عن اللهِ.. فلا يعودُ يحسُّ أنَّ لهُ مكانًا خاصاً عند ربِّهِ.. ولا يلمسُ دفءَ المعيةِ.

وإن ماتَ الدعاءُ.. ماتَ المعنى.. وصارتِ الأيامُ تمضي بلا وجهةٍ ولا روحٍ.

ولا تأتي السلامةَ من كلِّ هذه الشرور إلا بعد الدعاء.

فما زالوا يكثرونَ من الدعاءِ حتى أدمنوهُ.

كلُّ عواقبِهِ خيرٌ.. فكيفَ لا يُدمنوهُ.

ومن عرفَ ذلك.. وعرف أنَّهُ في الحقيقة فقيرٌ لا يملكُ شيئاً.. لا يزالُ يدعو حتى يلقى اللهَ.

فإن استجابَ اللهُ الدعاء..

فرحوا بكرامتِهِم عليه.. فرحوا بالمعيةِ.. وعظَّموا النعمةَ التي نزلتْ لهُم.. وغمرتهُم احاسيس الأمان بعد الإجابة.. والقربُ من اللهِ.. والغنى بالنعمةِ التي أُعطيتْ.

وليس بعد شعور أنَّ اللهَ يصلُهُم ولا يقطعُهُم شعور.

وإن أجَّلَ اللهُ الإجابةَ..

سلَّموا لهُ تسليمَ من أيقنَ أنَّ الحكيمَ لا يُخطئ.. يعرفُ متى تُفتحُ الأبوابُ.. ومتى يُتركُ الدعاءُ مُعلَّقاً.. ليُربّي القلبَ قبلَ أن يعطيهُ.

حتى إذا جاءَ العطاءُ.. جاءَ والقلبُ أصلب.. وأصدق.. وأعرفُ بربِّهِ.

ما كانَ الصمتُ عندهُ إهمالًا.. ولا التأخيرُ حرماناً.. إنما هو علمٌ أدقُّ.. ونظرٌ أبصر.. وتوقيتٌ أفضل..

وإنا لا ندعو غريبًا.. إنما هو حبيبُنا.. وهو أعلمُ بنا منا.

وإن منعَهُمُ اللّهُ..

قابلوا المنعَ بالتسليمِ والقبولِ.. ورحَّبوا بأقدارِ اللّهِ كما يُرحَّبُ بالضيفِ العزيزِ.. وسلَّموا بأنَّ في المنعِ عينَ العطاءِ.. وأنَّهُ صرفَ شرًّا مُستطيرًا.. شرًّا عظيمًا.. وأبدلهُم عنهُ بخيرِ الأمورِ.

وكم صرفَ عنا من شرورٍ عظامٍ.

الخَيْرُ ما يَقْضِيهِ عَلَّامُ الغُيُوبِ..
وَكُلُّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الحَبِيبِ حَبِيبِي.

ومن هنا تبدأ قصةُ زكريا عليه السلام..

الذي شهدَ لهُ اللّهُ على حسن عبوديته منْ فوقِ سبعِ سماواتٍ.

واحدٌ من أصحابِ المراكزِ الأولى على بني آدمَ في الدعاءِ وفي المسارعةِ إلى الخيراتِ.

واحدٌ من خيرِ من يُقتدى بهمْ على الإطلاقِ.

نموذجًا عمليًّا مثالياً على من قدَّمَ للهِ.. فقدَّمَ اللّهُ إليهِ.. وقدَّمَ اللّهُ.. فقدَّمَهُ اللّهُ.. وجعلَهُ الدليلَ على أنَّ اللّهَ يعطي الممكنَ والمستحيل.. حتى لا ييأسَ أحدٌ من سؤالِ اللّهِ.. ولا يستبعدَ أحدٌ

رحمتَهُ.. وأنَّ قارعَ البابِ يُفتحُ لهُ.. وأنه إن طالَ الوقوفُ.. تعاظمَ الأجرُ في الجنةِ.

وقد قصَّ اللهُ القصةَ ليوقنَ الناسُ أنَّ اللهَ يسمعُ عبادَهُ.. وأنَّهُ أقربُ إليهِم مما يظنونَ.. فلا يبقى في القلبِ بعدَ ذلكَ وهمُ البعدِ.. ولا يشعرُ عبدٌ أنَّ بينهُ وبينَ اللهِ مسافةً.

بداية القصة ؟!..

في لحظةٍ عابرةٍ..

جلست سيدةٌ تتأملُ طيراً صغيرًا يفتحُ فاه.. وأمٌّ تقتربُ.. تطعمُهُ بحنانٍ.

فحنَّ قلبُها حنينًا شديدًا لأنْ تكونَ أمًّا.. وأوقظَ في قلبِها ما نامَ طويلًا من أمومةٍ مؤجلةٍ طالَ انتظارُها.

وفي لحظةٍ عابرةٍ.. رفعتْ حنّةُ قلبِها ويديها إلى السماء.. ولمْ تكنْ في محرابٍ ولا بينَ دعاءٍ ممدودٍ.. ودعتْ ربَّها كما يدعو المحرومُ الذي فاضَ بهِ الصبرُ.

فاستجاب لها الرحيمُ بعبادِهِ.. وحملتْ حنّة بطفلها.

وحبن علمت.. قالت منْ فرحتِها:

﴿ربِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

مرتِ الأيامُ.. وكبرَ الوعدُ في بطنِها.. لكنَّ الفرحَ لمْ يكتملْ طويلًا.. إذْ ودّعتِ الدنيا زوجها.. إمامَ المسجدِ الأقصى والعالِمَ الجليلَ عمرانَ.. تاركًا خلفَهُ زوجةً تحملُ ثمرتَهُ المباركةَ التي نذرتْها حرَّةً لله لخدمةِ بيتِ المقدسِ وللعبادة.

فلما وضعتْها امرأةُ عمرانَ.. احتاجتْ مريمُ عليها السلامُ لمنْ يكفلَها.. فببركةِ صلاحِ والديها ودعوةِ أمِّها.. تنافسَ الصالحونَ لكفالتِها.. وأرادَ نبيُّ اللّهِ زكريا عليهِ السلامُ أنْ يكفلَها بعدَ موتِ والدِها.. لينالَ شرفَ أنْ يكفلَ ابنةَ شيخِهم وعالِمِهم الجليلِ وإمامِهم.

أخذَها زكريا يربِّيَها ويعلمَها ويكرمَها.. تقتبسَ منْ نبيٍّ هذا الزمانِ العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ.. وهذا من سعادتها عليها السلام.

وأصبحَ لها مكانًا خاصًّا في المسجدِ.. لا تغادرُهُ إلا قليلًا.. تتعبدُ فيهِ للهِ جلَّ وعلا.. أخذتِ الصلاةُ والعبادةُ والذكرُ كلَّ وقتِها.. ينسابُ الشكرُ منْ فمِها المباركِ بالليلِ والنهارِ.

مريمُ العبادةِ.. مريمُ الكرامةِ..

كان زكريا عليهِ السلامُ يرقبُ العنايةَ الربانيةَ التي تحيطُ بمريمَ.. يرى كرامةَ اللهِ لها.. ومكانتَها التي تعلو بسببِ العبادة.. ويراه يرفعُ منزلتَها ويختارُها ويصطفيها على نساءِ العالمينَ.

وكلما دخلَ عليها محرابَها.. رأى بعينيهِ منْ كراماتِ الأولياءِ ما يطمئنُّ القلبَ.. ويجعلُهُ يتمنى هذه المكانةَ منَ الكرامةِ.. وتتوقُ نفسُهُ أنْ تتعرضَ لهذا الذي مبسوطةٌ يداهُ بالعطاءِ سبحانهُ وتعالى.

فاكهةٌ في غيرِ أوانِها.. فاكهةُ الشتاءِ في الصيفِ.. فاكهةُ الصيفِ في الشتاءِ.. مريمُ يُستجابُ لها.. يظهرُ عليها كرمُ اللهِ وفضلُهُ.. ربٌّ يكافئُ على العبادةِ.. ملائكةٌ تتنزلُ.. رزقٌ وفيرٌ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كلُّ هذا أيقظَ في قلبِ زكريا شوقًا وحنينًا.

فرفعَ يديهِ بالدعاءِ.. يحبُّ أنْ يكونَ لهُ ذريةٌ تعبدُ اللّهَ.. وإنْ كانتْ هذه الحاجةُ قديمةً في نفسِهِ.. إلا أنَّ رؤيتَهُ لصلاحِ مريمَ وكرامتِها على اللّهِ هيَّجتْ قلبَهُ إلى أنْ يُنجبَ ولدًا صالحًا يُحبُّ اللّهَ ويعبده.

فقالَ في نفسِهِ: إنَّ الذي رزقَ مريمَ منْ حيثُ لا تحتسبُ.. وأنزلَ عليها رزقاً بلا سبب.. وقلبَ سُننَ العادةِ إكراماً لها.. لقادرٌ أنْ يغيرَ سُننَ الإنجابِ.. فيهبَني ولدًا صالحًا يعبدُهُ ويُحيي في الأرضِ ذكرَه. اللّهُ إذا أرادَ شيئًا قالَ لهُ: كنْ.. فيكونُ.. ولي في مريمَ أملٌ كبيرٌ.. ولكلِّ مؤمنٍ.

مريمُ ابنةُ عمرانَ.. أملُ زكريا الكبيرُ..

يكفي المرءَ علمًا بربِّهِ.. أنْ يضعَ عينَهُ على منْ فازوا.. ويتأملَ منْ فاضَ عليهم بعطائِهِ.. حتى لا يبقى في صدرِهِ شكٌّ أنَّ اللّه مجيبٌ.. فيفرحَ بربِّهِ المجيبِ.. ويطمئنَّ بربه القريبِ.. ويفخرَ بهِ وهو يراهُ يفتحُ لعبادِهِ الأبوابَ واحدًا تلو الآخرِ.. وهذه آثارُ نعمهِ.. وشواهدُ كرمِهِ.. ودليلٌ لمنْ أرادَ اللّهُ لهُ اليقينَ.

هُنا.. يبدأُ القلبُ في الاطمئنانِ والتحفُّزِ.. فقدْ رأى آثارَ إجابة من دعى منَ الأولينَ لا تزالُ باقيةً تحكي قصصَهم.. ورأى منْ استُمعَ إلى أصواتِهم في السماءِ يمشونَ بجوارِه على الأرضِ.. يشعرُ بقلوبِهم الآمنةِ.. ويرى أحلامِهم المحققةِ.. وقدْ يكونُ هو نفسُهُ واحدًا منهم.. فيطمئنُّ شديدَ الاطمئنانِ كلما رآهم.. ويوقنُ أنَّ منْ أنعمَ عليهم الأمسَ.. سينعمُ عليه اليومَ والغد.

ولهذا طارَ قلبُ زكريا فرحًا حينَ رأى ما كانتْ فيهِ مريمُ عليها السلامُ منْ إنعامٍ وإكرامٍ.. كشفَ لهُ المشهدُ أنَّ اللهَ يكرمُ ضيوفَهُ.. وأنَّ بابَهُ مفتوحٌ لهم على مصرعيهِ لا يغلقُهُ في وجهِ أحدٍ.. وأنه يرحبُ بكلِّ سائلٍ أحسنَ الظنَّ في أيِّ وقتٍ يحبُّ.. في أيِّ مكانٍ يحبُّ.

فأحبَّ زكريا أنْ يسألَ اللهَ أحلامَهُ.. وكانَ قلبُهُ معلقًا بالآخرةِ.. أحبَّ أنْ يوفقَ في عبوديتِهِ للهِ.. أنْ يُحفظَ الدينُ في الأرضِ.. ويُقامَ كما يحبُّ اللهُ.. ويُعملَ بهِ ويُدعى إليهِ.. وأنْ يعزَّ الإسلامُ وتصانَ رسالتُهُ.. وأنْ ينالَ شرفَ أنْ يكونَ ممنْ يقومُ بهم الدينُ.. لا ممنْ يكتفونَ بمشاهدتِهِ منْ بعيدٍ.

وتاللهِ منْ أُعطيَ هذا فقدْ رُحمَ.. فذلكَ عملُ الآخرةِ.. ومنْ رُحمَ في الآخرةِ فقدْ فازَ فوزًا عظيمًا.

تلكَ هي الرحمةُ الحقيقيةُ التي تُطلبُ.. وتُقدَّمُ على كلِّ أمنيةٍ.. وتُجعلُ الهدفَ الأولَ والأخيرَ.

دعوة زكريا الأولى ؟!..

حينَ كبرَ سنُّ زكريا وخفَّتْ قوتُهُ.

وشابَ شعرُهُ وصارَ الجسدُ يُبطِئ.. وصار يرى كل صباح أنَّ الطريقَ إلى نهايتِهِ أقربُ ممَّا مضى.. ازدادَ خوفه على رسالة الله إلى بني إسرائيل.. كيف سيكون الأمر من بعده؟

فطاف يبحثُ عمن هو قادر على حملها بحقها ويقلَّبَ بصرَهُ في وجوهِ الرجالِ.. فلمْ يجدْ أحدًا.. فحزنَ على ما حلَّ بهم من وَهنٍ.. وحُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ المَوتِ.. وخافَ أن تضيع الرسالة.. وأنْ يُؤكلَ هذا الدينُ من أطرافِهِ إذا خلا الزمان ممن يحمله.

حينها لمْ يجدْ زكريا ملجأ إلا اللّهَ.. ولا باباً يُطرقُ إلا بابَ السماءِ.. فقام من الليلِ بعدَ أنْ نامَ أصحابُهُ.. ليجلس بينَ يدي من بيدِهِ مقاليدُ الأمورِ.

شيخٌ كبيرٌ.. أثقلتْهُ السنينُ.. قام لله في موضعٍ لا يراهُ أحدٌ.. ولا يسمع صوته فيهِ أحدٌ.. إلا منْ لا تخفى عليهِ مثقالُ ذرَّةٍ.

وجعلَ يهتفُ لهُ: يا رب. يا رب.. يا رب.

واللّهُ يسمعُ صوتَه الخفيَّ.. ويعلمُ قلبَه النقيَّ.

فأجابَ عليهِ: لبيكَ.. لبيكَ.. لبيكَ.

فهانتْ على زكريا الدنيا كلُّها بقولِ اللّهِ: لبيكَ.

واطمأنَّ أنَّهُ مسموعٌ ومقبولٌ.. وأنَّ اللّهَ آخذٌ بيدَيْهِ أخذَ الكرامِ عليهِ.

فاستجمعَ شتاتَ قلبه.. وأخذَ يشكرُ الله ويتحببُ إليهِ.. ويعرضُ آمالَهُ عليهِ بقلبٍ حاضرٍ صادق.. دونَ أنْ يخجل من ضعفِهِ.. لأنَّهُ بينَ يديْ من يُؤتمنُ على أنْ يرحمَ الضعفاء.

والسميعُ ينصتُ إليهِ.. لا على عجلةٍ ولا ملالةٍ وهو يقولُ:

﴿رَبِّ﴾.

﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

أتوسلُ إليكَ بضعفي كلِّهِ أن تهَبْ لي من لدنكَ ذريةً طيبةً.. وأورثه منِّي شرفَ النبوةِ كما أورثتَها آباءَهُ من ذريةِ يعقوبَ.. واجعلْ لهُ نصيبًا من الحكمِ يقيمُ بهِ العدلَ.. ويجمعُ بهِ قلوبَ بني اسرائيلَ التي تفرقتْ.. ويقفُ حيثُ ينبغي للحقِّ أنْ يقفَ.. فإني أخافُ ممنْ يتولى أمر دين الناس بعدي.. أخافُ أنْ تُسلَّمَ قلوبُ بني إسرائيل لمنْ لا يخافك.. قد أحسستُ بدنوِّ أجلي ولمْ يبقَ لي إلا الرجاءُ فيكَ.

يا ربِّ حافظْ بهِ على الدين.. وارزقْهُ محبتَكَ.. والقبولَ في الأرضِ والسماءِ.. وقلبًا راضيًا بما قسمتَ.. مطمئنًّا إلى حكمتِكَ.

وأجعلْهُ في كرامتِكَ التي أكرمتَنا بها من كرامةِ النبوةِ ومعيةِ الوحيِ.

﴿إِنَّكَ سميعُ الدعاءِ﴾.

﴿وأنتَ خيرُ الوارثينَ﴾.

لمْ يطلبْ زكريا الولدَ في وجودِ أبناءِ عمومتِهِ الذينَ سيحملونَ منهجَهُ منْ بعدِهِ إلا أنهمْ لمْ يأتمِنهمْ على منهجِ اللهِ.. فدعا ربَّهُ نداءً خفياً.. بينَهُ وبينَ ربِّهِ.. لأنهم إذا دعا وسمعوهُ فقدْ يغضبونَ

منْ دعاءِه ويعادُونَهُ.. لذلكَ جاءَ دعاؤُهُ خفياً في السرِّ بينَهُ وبينَ ربِّهِ.

كان زكريا أباً صالحاً..

يعلمُ أنَّ خيرَ الورثِ: ما يبقى ولا يفنى.. وأن أعظمُ ما يتركُهُ لولده: النبوةُ.. والعلمُ.. والصلاحُ.. ذلك الذي يبقى ولا يفنى.

أمَّا الدنيا.. والمالُ.. والترفُ.. فهي تزول ولا تبقى.

الدنيا عندَه زكريا أحقرُ منْ أنْ يكنزَها ليحوزَها ولدُهُ من بعدِهِ.

والنبيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدرًا منْ أنْ يخافَ على مالٍ أو يجمعَهُ.

كان زكريا زاهداً فيما زهَّدَ اللهُ فيهِ من الدنيا..

نجاراً يأكلُ من كسبِ يدَيْهِ.. لا يجمعُ إلا ما يكفيهِ.. ولا يجهدُ نفسَهُ في العملِ إلا ليكفيَ حاجتَهُ.. وباقي الوقتِ للعبادةِ وعملِ الآخرةِ.

فليس للدنيا قيمةٌ تقارنُ بالآخرةِ.. ولا للمال والترفِ بقاءٌ.. وما سألَ اللهَ ولدًا إلا ليرثَ منهُ العلمَ والعبادة وأصول النبوة.. يبتغي بذلك وجه الله تعالى.

وتعجزُ الكلماتُ..

عن وصفِ رحمةِ اللهِ التي أحاطتْ زكريا عليهِ السلامُ وقومَهُ بعدَ هذا الدعاءِ.. فقد استجيبتْ دعوتُهُ التي كشفَ اللهُ بها عن

مكانتِهِ العاليةِ.. وكافأهُ على حملِ همِّ أمتِهِ.. وعلى قلبِهِ الذي كانَ يرقُّ بالقلقِ والحرصِ على رعيتِهِ.. وتألمِهِ لقومِهِ كما يتألمُ الأبُ على أولادِهِ لما حلَّ بهم من وَهنٍ وبُعدٍ عن هديِ الأنبياءِ.

وكشفَ لنا كيفَ تخرجُ الدعوةُ الصادقةُ.. وقصَّ علينا عن شعورِ القربِ وما لهُ من سحرٍ.. وعن اللهِ الأولِ الذي يُلجأُ إليهِ قبلَ أنْ يُطرقَ أيُّ باب.. والآخرِ الذي يُستعانُ بهِ حينَ تنقضي الحِيَلُ.. وأنَّهُ الملجأُ والحلُّ الوحيدُ.

فنزلتْ على دعوتِهِ رحمةُ اللهِ الشاملةُ.. نورًا يهدي القلوبَ ويعيدُها من التيهِ.. ويذكرُهم أنَّ إحسانَهُ عليهم لا ينقطعُ.. وأنَّ رحمتَهُ أوسعُ من كلِّ خطأٍ.. وأكبرُ من كلِّ ذنبٍ.

لا فرحةَ تعدلُ فرحةَ الإنسانِ حينَ يجدُ من يعبرُ لهُ عمَّا بداخلِهِ..

فإذا فرحَ أسرعَ إلى أحبِّ الناسِ ليخبرَهُ لقوةِ العلاقةِ والترابطِ بينهما.. ولعلمِهِ أنَّ حبيبَهُ سيفرحُ لهُ ولنْ يحسدَهُ.. وأنَّ الأفراحَ لا تكملُ إلا إذا قُسمتْ.

وكذلكَ إنْ أصابَهُ همٌّ أو مشكلةٌ لمْ يطقْ كتمانَهُ.. وبحثَ عمَّنْ يأمنُ عندَهُ الشكوى ولا يضيقُ صدرُهُ.. ولا يُصغِّرُ وجعَهُ ولا يُسارعُ بالحكمِ عليهِ.. حتى لو لمْ يحلَّ مشكلتَهُ ولمْ يكشفْ كربَهُ فعلى الأقلِّ سيريحُ قلبَهُ بالحديثِ إليهِ.. ويخففُ عنهُ بعضَ همِّهِ.

فكيفَ بحبيبٍ قريبٍ مجيبٍ..

قادرٍ على كشفِ كربِكَ وحلِّ مشكلتِكَ.. ويعلمُ همَّكَ وشكواكَ وإنْ لمْ تُحسنْ بثَّها.. بلْ يعلمُ ذلكَ كلَّهُ حتى قبلَ أنْ تحكيَ.. بلْ إنَّهُ يحبُّ كلما تجددَ لكَ حزنٌ أو همٌّ أنْ تحكيَ لهُ.

وإذا ابتليتَ بمرضٍ أو وقعتْ بكَ نازلةٌ أنْ تسألَهُ.. ولو كلَّ ساعةٍ.. ولو كلَّ لحظةٍ.. لا يملُّ أبدًا.. ولا يعتبُ على كثرةِ السؤالِ.

وهو أرحمُ بكَ من نفسِكَ التي بينَ جنبَيْكَ.. وأرحمُ من أمِّكَ التي ولدتْكَ.. وهو أولى من كلِّ حبيبٍ وأقربُ من كلِّ قريبٍ.

فللهِ درُّ الهمومِ والأماني التي قادتْنا إليهِ.. وأحيتِ الشوقَ في القلوبِ إليهِ.. وإلى الدعاءِ إليهِ.

كمْ يسألُنا أنْ ندعوهُ وهو الغنيُّ عنَّا..

وينزلُ في الثلثِ الأخيرِ من الليلِ وهو الغنيُّ عنَّا.. ويقولُ وهو يتودَّدُ إلينا ويقتربُ منَّا:

منْ ذاكَ يسألُني فيُعطى سؤلَهُ.

منْ ذا يتوبُ اليومَ من عصياني.

منْ ذاكَ يسألُني فأغفرُ ذنبَهُ.

فأنا الودودُ.. الواسعُ الغفرانِ.

منْ ذا يريدُ شفاءَهُ من سقمِهِ.

فأنا القريبُ.. مجيبُ من ناداني.

عبودية زكريا ؟!..

تأملْ أيَّ مقامٍ شرَّفَ اللهُ بهِ زكريا هنا !..

بالرغمِ منْ أنهُ كانَ منْ أفاضلِ أنبياءِ بني إسرائيلَ.. إلا أنَّ اللهَ لمْ يذكرهُ هنا لنا بمقامِ النبوَّةِ.. ولا بمقامِ الرسالةِ.. ولكنهُ ذُكرَ بمقامِ العبوديَّةِ.

العبوديَّةُ التي تقارنها الفضيلةُ والسعادةُ.. والتي تردُّ على الإنسانِ كرامتَهُ وترفعُ منزلتَهُ.

تلكَ العبوديَّةُ التي ننحني بها للهِ.. ثمَّ ترتفعُ جباهُنا فلا نذلُّ لجبَّارٍ في الأرضِ أبداً.

العبوديَّةُ التي تُحرِّرُ منْ كلِّ عبوديَّةٍ أخرى.. تُحرِّرُ منْ عبوديَّةِ الخلقِ والحاجاتِ والأهواءِ والشهواتِ والطواغيتِ.

تلكَ العبوديَّةُ التي ترجمَ القاضي عياضٌ عنْ شعورِ كلِّ مؤمنٍ نحوها حينَ تغنَّى بها فقالَ:

ومما زادني شرفاً وتيهاً.. وكدتُ بأخمُصي أطأُ الثريَّا

دخولي تحتَ قولكَ: يا عبادي.. وأنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبيّاً.

وما أفقهَ العبدَ حينَ يعلمُ حقيقةَ الدنيا وزوالَها.. فيبيع نفسه إلى الله.

ويبايعُهُ على السمعِ والطاعةِ.. يشتري بذلك الدار الآخرة.

من هنا يبدأ طريقُ العبودية.

كأني بهِ وقد وقفَ شامخاً بين يدي ربه يقول: يا ربِّ.. هذهِ النفسُ ملكك.. وهذه الدنيا إلى زوال.. ولا يبقى إلا الدار الآخرة ووجهك الكريم.. فسر بنفسي حيثُ شئتَ.. وقتما شئتَ..

أُبايعك على السمعِ والطاعةِ في العسرِ واليسر.. والمنشطِ والمكره.. وأن أقولَ بالحقِّ أينما كنت.. لا أخافُ فيكَ لومةَ لائم..

وإني قائمٌ على حراسة نفسي.. ولك منها ألا تعارضُكَ أبدًا في شيءٍ أردتَهُ.. أو أمرٍ أمرتَهُ.. أنتَ أهلٌ أنْ يوكلَ إليكَ الأمرُ وتُطاعَ.. ولا يضيعُ عندك العملَ ولا تنساهُ.

فيشترى اللّهُ سبحانه منهُ نفسَهُ.. مقابل الجنةِ.. وهو حريصٌ أمينٌ عليه.. يقدِّرُ مجهودَه الذي يبذلُهُ.. ويرضى منهُ بالقليل قبل الكثير.

كأني بصدى خليلِ اللّهِ إبراهيمَ يهمسُ الآنَ في الأرجاءِ..

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أسلمتُ.. أنتَ أهلُ الطاعةِ والثقةِ المطلقةِ.. أعيش لك العمر.. لا أقدّمُ رأيي على أمرِكَ ونهيكَ.. لا أختارُ لنفسي بعدَ اختيارِكَ.. بل أتسلى بعلمِكَ وحكمتِكَ.. وأُسلِّمُ لكَ دون أن أرتابُ.. وأمضي لأمركَ دون أن أخشى أحد.. وأتوكلُ عليكَ توكلَ الطيرِ التي تخرجُ خماصاً.. وتعودُ بطانًا.

هذهِ مملكتُكَ.. ولكَ فيها حريةُ الأمرِ.. وأنا لك عبدٌ.. فأمضِ بي حيثُ شئتَ.. واحبسني حيثُ شئتَ.. وافتح لي متى شئتَ.. لكَ الطاعةُ حينَ تأمرُ.. والرضا بإرادتِكَ.. وأنتَ الوكيلُ.. فدبرْ لي.

أسماءُ اللهِ الحسنى.. كنزُ كل عبد.

منْ تأملَ حالَ زكريا عليهِ السلامُ.. ودعاءَهُ المستجابَ.. وجدَ أنَّ سرَّهُ وسرَّ كلِّ مجابي الدعاءِ يدورُ حولَ ظنِّهِم بربِّ العالمينَ.

أينَ اللهُ منْ قلبِهِ؟!

أيرى اللهَ عظيمَ الغنى حقًّا؟!

أيرى اللهَ أهلًا للطلبِ منهُ؟!

أيرى اللهَ يحبُّهُ أنْ يطلبَ منهُ؟!

أيرى اللهَ يستجيبُ حقًّا؟!

ولأيِّ درجةٍ يرى هذا كلَّهُ؟!

فإنْ كانَ يرى ذلكَ.. أحبَّ الدعاءَ.. وكانَ عليهِ سهلًا ميسرًا.

وقد كانَ قلبُ زكريا عليهِ السلامُ يتقلبُ في معاني أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ.. ويعيشُ معها.. يحبُّها.. ويتكئُ عليها.. يعرفُ في قرارةِ نفسِهِ أنَّهُ لا حولَ ولا قوةَ لهُ إلا بها..

وإنَّ لكلِّ اسمٍ من أسماء الله وعدًا خفيًّا.. متحقِّقًا لمنْ صدقَ اللجوءَ إليهِ بهِ.. وبنى علاقته بربه عليها.

وإذا احتاجَ شيئاً.. لمْ يكنْ بينهُ وبينَ حاجته إلا أنْ ينفضَ غبارَ الكسلِ.. وينفضَ غبارَ اليأسِ.. ويتجهَ إلى أسماءِ ربِّهِ سبحانهُ وتعالى.. لتخبرَهُ أينَ هو.. وأينَ اللهُ.. فينتهي شتاتُهُ.. ويجمعُ اللهُ عليهِ شملَهُ.

والسرُّ.

إنما هو الصدقُ والتصديق.. الصدقُ في رؤية اللهَ كبيرًا حقاً في نفسك.. وأهلًا أنْ تضعَ حاجتَكَ بينَ يديه.

إنما هو الحبُّ.. الذي جعلَكَ تقصدُهُ ولا تطرقَ بابًا سوى بابِهِ.

إنما هو الثقةُ.. التي جئتَ بها.. ووضعتَها بينَ يديه.. مطمئنًّا أنَّ الذي قصدتَهُ لا يردُّكَ.. محسنًا فيهِ كلَّ الظنونِ.

والعبدُ يحتاجُ إلى عطف اللهِ وحنانه..

تعلم من زكريا عليه السلام كيف يُخاطَبُ الرب..

ذهبَ زكريا إلى اللهِ مفتقرًا.. كاشفًا عن وهنِهِ وانكسارِهِ.. مستسلمًا لأوامرِهِ وأقدارِهِ.. يشكو إليه خوارَ قوتِهِ.. فارغَ اليدينِ منْ كلِّ حيلةٍ.. في أشدِّ الحاجةِ لعطفِهِ وحنانِهِ.. يرفعُ إليه شكواهُ التي لا يستطيعُ دفعَها.

ولمْ يبقَ لهُ بعدَ مدحِ غناهُ.. وخلعِ أوهامِ الغنى عن غنى اللهِ.. إلا أنْ يقولَ: أنا عبدُكَ الذي لا يملكُ لنفسِهِ نفعًا.. ولا ضرًّا.. ولا حياةً.. ولا نشورًا.

أتذللُ إليكَ بقلةِ حيلتي.. وفقري.. وعجزي.. ألا تردَّني إلا وقدْ أعطيتني ما سألتُ.. ولا تتركني لنفسي.. فتتركني إلى فقيرٍ معدمٍ.

فاستقبلهُ الودودُ استقبالاً غنياً كريماً.. بترحابٍ وحفاوةٍ تليقُ بهِ سبحانهُ وتليقُ بغناهُ.. وأخذ يقرِّبُهُ ويطمئنُهُ.

يا زكريا أبشر.. إنَّ ربَّكَ ليسَ بمضيعِكَ.

اللهُ.. ما أجملَهُ منْ مقامٍ.

إني أرى الدعاءَ أعظمَ الإيمانِ باللهِ.. لأنَّ صاحبَهُ يؤمنُ أنَّ اللهَ تعالى يسمعُ دعاءَهُ الخفيَّ.

ولو أنَّ الإنسانَ أظهرَ افتقارًا كافتقارِ زكريا عليهِ السلامُ وضعفِهِ.. يوشكُ أنْ يرزقَهُ اللّهُ الغنيُّ القويُّ.. وإنِ انعدمتِ الأسبابُ كما انعدمت عندَ زكريا.

ما أشبهَ هذا بتضرعِ النبيِّ صلى اللّهُ عليهِ وسلمَ ليلةَ بدرٍ..

يصلي طوالَ الليلِ ويستغيثُ باللهِ: اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني.. اللهمَّ آتِ ما وعدتني.. اللهمَّ إنْ تهلكْ هذهِ العصبةُ منْ أهلِ الإسلامِ لا تُعبدْ في الأرضِ.

فما زالَ يهتفُ بربهِ.. مادًّا يديه.. مستقبلَ القبلةِ.. حتى سقطَ رداؤُهُ عنْ منكبيهِ.

فأنزلَ اللّهُ: إذْ تستغيثونَ ربكم.. فاستجابَ لكم.. أني ممدُّكم بألفٍ منَ الملائكةِ مردفينَ..

وتغيرتْ وجهُ الحياةِ على الأرضِ بأسرِها بانتصارِ المؤمنينَ يومها.. باستغاثةِ النبيِّ صلى اللّهُ عليهِ وسلمَ باللهِ شديدِ القوى طوالَ هذهِ الليلةِ.. يومَ بدر.

كيفَ كانَ ينتصرُ الإسلامُ يومها دونَ استغاثةِ رسولِ اللّهِ بذي القوةِ المتينِ؟

ولعلَّ هذا يذكركَ عندما ذهبَ إلى الطائفِ يدعوهم إلى نصرة اللّهِ عزَّ وجلَّ.. فأغرَوْا بهِ سفهاءَهُم وصبيانَهُم.. فرموهُ بالحجارةِ حتى أدموا قدميهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.. ورجعَ منَ الطائفِ وهو مليءُ قلبِهِ بالأشجانِ والأحزانِ.. لأنَّ قومَهُ رفضوا هذهِ الدعوةَ.. وهو يعلمُ أنَّها خيرٌ لهم.

فتأملْ حالَهُ إذْ لمْ يتحطمْ نفسيًّا.. ولمْ يحتجْ إلى أحدٍ في الدنيا.. وإنما التجأَ إلى الذي لا تتناهى قوتُهُ.. ولعلَّ هذا هو الضعفُ والانكسارُ الحقُّ لله عزَّ وجلَّ من صميم العبودية.

أخذ صلى الله عليه وسلم يقول: اللَّهمَّ إليكَ أشكو ضعفَ قوتي.. وقلةَ حيلتي.. وهواني على الناسِ.

أنتَ أرحمُ الراحمينَ.. أنتَ ربُّ المستضعفينَ.. وأنتَ ربي.

إلى منْ تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني.. أمْ إلى عدوٍّ ملَّكتَهُ أمري؟

إنْ لمْ يكنْ بكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي.. غيرَ أنَّ عافيتكَ هيَ أوسعُ لي.

أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشرقتْ لهُ الظلماتُ.. وصلحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ.. أنْ يحلَّ عليَّ غضبُكَ.. أوْ أنْ ينزلَ بي سخطُكَ.

لكَ العتبى حتى ترضى.. ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ.

والعبدُ يعتمدُ في خطئهِ على ألطافِ ربِّه.. فلا ييأس أبداً من كثرةِ وقوعِه.

انظر إلى أخلاقِ اللهِ التوابِ.. حينَ يأتي إليه عبدُهُ مذنبًا.. قدْ خذلتْهُ نفسُهُ.. فيعترفُ بذنبِهِ.. ويذهب إليه يستسمحه أن يغفر له ويعفو عنه.

فيستقبلهُ التوابُ يرخي عليهِ سترَهُ.. ويتودودُ إليهِ حتى لا يفزعَ.. ويدنيهِ بعدما ظنَّ أنَّهُ أبعدَهُ.. ويستقبلُهُ لا بصفتهِ منْ أخطأَ.. بل بصفتهِ منْ عاد.

يستقبلُهُ ليسَ غاضبًا منْ سقوطِهِ.. بل فرحًا بتوبتِهِ وعودتِهِ.

يأتيهِ العبدُ خائفًا.. فيؤمّنهُ التوابُ ويعذره.. وإذا تابَ أعادهُ إلى موضعِ الحبِّ.

لمْ تنقذهُ التوبةُ منَ العقوبةِ فقطْ.. بل أعادتْهُ إلى المنزلةِ.

والرجوعُ الصادقُ لا يتركُ في الصحيفةِ أثرًا.. منْ تابَ كمنْ لا ذنبَ لهُ.. لا فرقَ بينهما.

لعلكَ وقفتَ الآنَ على السببِ الذي كانَ يجعلُ كثيرًا منْ سلفِنا الصالحِ.. رضوانُ اللهِ عليهم.. يستحيونَ الطلبَ منَ اللهِ قبلَ أنْ يستغفروا.. بل قدْ يستغفرونَ ولا يطلبونَ.. لعلمِهم أنَّ الذنوبَ هي سببُ مصائبِهم.. وهيَ التي تمنعُهُم الخيرَ.

لما مُنِعَ القطرُ على عهدِ عمرَ.. لمْ يزدْ على الاستغفارِ شيئًا.

كمْ رحمَ التوابُ عبادَهُ كثيري الزَّلل بإنزالِهِ لسيدَ الاستغفار..

اللهمَّ أنتَ ربي.. لا إلهَ إلا أنتَ.. خلقتني وأنا عبدُكَ.. وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ.. أعوذُ بكَ منْ شرِّ ما صنعتُ.. أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ.. وأبوءُ لكَ بذنبي.. فاغفرْ لي.. فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ.

ويشاءُ التوابُ الرحيمُ بكلِّ عبادِهِ.. أنْ منْ قالَها منَ النهارِ وهو موقنٌ بها.. فماتَ منْ يومِهِ قبلَ أنْ يمسيَ.. فهو منْ أهلِ الجنةِ.. ومنْ قالَها منَ الليلِ وهو موقنٌ بها.. فماتَ قبلَ أنْ يصبحَ.. فهو منْ أهلِ الجنةِ.

وما أحلى ما ناجى بهِ أبو العتاهيةِ اللّهَ التوابَ:

إلهي لا تعذبني فإني.. مقرٌّ بالذي قد كانَ مني

وما لي حيلةٌ إلا رجائي.. وعفوكَ إنْ عفوتَ وحسنُ ظني

فكمْ منْ زلةٍ لي في البرايا.. وأنتَ عليَّ ذو فضلٍ ومنِّ

إذا فكرتُ في ندمي عليها.. عضضتُ أناملي وقرعتُ سني

يظنُّ الناسُ بي خيرًا وإني.. لشرُّ الناسِ إنْ لمْ تعفُ عني

أجنُّ بزهرةِ الدنيا جنونًا.. وأفني العمرَ فيها بالتمني

وبينَ يديَّ محتَبَسٌ طويلٌ.. كأني قد دُعيتُ لهُ كأني

ولو أني صدقتُ الزهدَ فيها.. قلبتُ لأهلِها ظهرَ المجنِّ.

مُحتَبَسٌ طَويلٌ: القبر ويوم الحساب.. كَأَنّي قَد دُعيتُ لَهُ كَأَنّي: وكأني دعيت له بالفعل واقترب موعده.. قَلَبتُ لِأَهلِها: لأعرضت عنها تماماً وتركت أهلها.. ظَهرَ المِجَنِّ: تعبير عربي يعني الإعراض والترك التام.

فإنْ كنتَ عبدًا حقًّا..

فالعبدُ يثقُ في ربِّهِ كما كانَ يثق فيه زكريا عليه السلام.

فهلْ تراهُ أهلًا للثقةِ فيما يأمرُ بهِ وينهى عنهُ؟

أتراهُ أهلًا للسمعِ والطاعةِ؟

أتراهُ يضيعُكَ إنْ استجبتَ؟

أتراهُ ناصركَ أمْ خاذلكَ؟

أتراهُ يستحقُّ أنْ تكونَ لهُ عبدًا؟

أتراهُ نعمَ الربُّ والملكُ.. أمْ تشككُ في ذلك؟

أتراهُ يستحقُّ أنْ تتركَ راحتَكَ.. وتقومَ إنْ أمركَ؟

لأيِّ درجةٍ تراهُ يتولى أمرَكَ؟

لأيِّ درجةٍ تضعُ فيهِ ثقتَكَ؟

فإنْ أصلحتَ كلَّ هذا.. تعرفْ قدرَهُ.. وتعرفْ قدرَكَ.. وتقفْ في موضع عبوديتك الصحيح.

وتطيعَهُ.. وأنتَ تعجبُكَ طاعتُهُ.. وتستجيبُ لهُ قبلَ أنْ يناديكَ.. وتحبُّهُ أنْ يأمرَكَ وينهاكَ.. وتتمنى أنْ يطلبَ منك شيئًا.. وتثقُ فيهِ.. ثقةً تطمئنُّ بها على نفسِكَ.. في الدنيا والآخرة.

الله المجيب ؟!..

لا يخرجُ أحدٌ من محرابهِ كما دخلَ..

ولا يصعد دعاءٌ إلى السماء ليضيعَ في فراغِها.

يا زكريا.. لبيكَ.

لكَ ربٌّ يسمعُ الدعاءَ ويجيبُ النداءَ قبل أن يكتمل على الشفاه.. ولا تُخفضْ يديكَ إلا وقد سبقتكَ الإجابةُ.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾

كانَ زكريا يعرفُ أين يقفُ إذا ضاقتْ الأرضُ.. يعرف الباب الذي لا يُغلق.. يعرف المحراب الذي لا يُرد فيه الدعاء.

نادانا في زمنٍ تشعبتْ فيهِ همومُ الدعوةِ.. واشتدَّ فيه الفسادُ في بني اسرائيلَ.. ومعَ ذلكَ.. لم يؤجلِ الصلاةَ بحجةِ العملِ.. ولا قدمَ الانشغالَ بالناسِ على نداءِ اللّهِ..

يعلم أنه ما كانَ للهِ لا يُحفظُ إلا بالمسارعةِ في اجابةِ نداءِ اللّهِ.. وأن الدعوة التي تُقدم على الصلاة حتماً ستضيع.. فالصلاةُ اولويةٌ مطلقةٌ لا يتخلفُ عنها.. ولا يمكنُ تركُها حتى بزعمِ الانشغالِ بالعلمِ.. ولا بتعليمِ الناسِ.. ولا إصلاح الدنيا كلها.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

أُجيبَ لهُ في نفسِ المكانِ..

حيثُ يكون العبدُ أقرب ما يكون.. والقلبُ أصدقُ.. والبابُ أوسعُ.

في محراب الصلاة.. حيثُ هناك تُمنحُ العطايا الكُبرى.. وتتغيرُ الأقدار بالدعوات الصادقة.. ويُعطى العبدُ أفضلَ ما يُعطى.

فنعوذُ باللهِ أن تفتقدنا المساجدُ.. فمن فارقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ.. فقد خلعَ ربقةَ الإسلامِ من عنقِهِ.. إنما يأكلُ الذئبُ من الغنمِ القاصيةِ.

يا زكريا.. لا تُخفضْ يديكَ إلا مستجابٌ لكَ.. بغلامٍ.. ليسَ عاديا.

ففرحَ زكريا فرحًا شديدًا بالبشرى.. ودُهِشَ من قدرةِ اللهِ التي تتجاوزُ المألوفَ.. ورحمةِ اللهِ التي دوماً تفوقُ الظنون.. وتمحو المستحيل.

إنها للحظةٌ تاريخيةٌ أن يشاهدَ قدرةَ اللهِ عيانًا.. وكيف تنهار أمامها القوانين.

صار يرى بأمِّ عينِهِ عظيمَ منِنِهِ وفضلِهِ..

عندها.. هانت عليه كلُّ الموانعُ.. وتلاشتِ الأسبابُ.. وبدا كلُّ ما في الدنيا ضئيلاً صغيراً.. حتى العقبات التي كانت تبدو جبالاً.

وأحسَّ بروحِهِ تطيرُ في السماءِ.. تعيشُ في كنفِ ربِّها.. لا ترى في الكونِ شيئًا إلا قدرتَهُ.

فلما أفاقَ قالَ سبحانكَ..

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾

دُهش لما رأى المعجزة تتحقق.

وربما اشتاقَ أن يسمعَ البشارةَ مرةً أخرى.. تلذذًا بتكرارها..

وإنَّ الإنسانَ واللهِ ليجدُ فرحَ زكريا يشعُّ من هذهِ الآياتِ ويبرزُ في كلِّ كلمةٍ من كلماتِها..

وإنَّ الإنسانَ ليسعدُ وهو يقرأُ هذهِ الآياتِ لسعادةِ زكريا ويفرحُ لفرحتِهِ. وكأنَّ البشرى لم تكنْ لهُ وحدهُ.. بل لكلِّ من حُرِمَ شيئاً واستبعدَ في قلبِهِ أن يُوهبَ لهُ يومًا.. وظن أن الأبواب قد أُغلقت.

ولعلَّ هذا المشهدَ البهيَّ يعيدُ إلى القلبِ ذكرى قديمةً..

ذكرى نبي الله إبراهيمَ عليهِ السلامُ.. الذي دُهشَ ودُهشتْ زوجتُهُ سارةُ حين نزلتِ الملائكةُ من أجلِهما ببشرى من الله.. غلامٌ عليمٌ.. واسمه إسحاقَ.

فرد عليهم إبراهيمُ عليه السلام قائلاً: أبشرتموني على أن مسني الكبرُ؟ بمَ تبشرونِ على الحقيقة وكيفَ تأتي الهبةُ وقد عُدِمتِ الأسبابُ؟

ودُهشتْ سارةُ عليها السلامُ.. حتى صكتْ وجهها وقالت:

﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

فجائها الردُّ الإلهيُّ وديعًا:

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ﴾

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾

كما جاءَ زكريا رداً إلهياً ودودًا:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾

هو عليَّ هينٌ.. لا شيءَ في قدرتي..

من عدمٍ خلقتُكَ.. فأيُّ شيءٍ بعد العدم يصعب عليّ؟

غيرَ أن تعجُّبَ إبراهيمَ وسارةَ كانَ لكبرِ السنِّ فقط.. فقد رزقا بإسماعيلَ قبلَ ثلاثَ عشرةَ سنهْ.

أما زكريا.. فقد اجتمعَ عليهِ كبرُ السنِّ.. وعقمٌ أغلقَ بابَ الأسبابِ..

ليعلِّمَ اللّهُ العالمَ كلَّهُ درسًا لا يُنسى:

أنَّ الأمرَ.. أمرُ اللّهِ وحدهُ.. لا دخلَ للأسبابِ فيه.. وأنها ليست إلا جنوداً تسير بأمرِهِ.. وتتعطلُ بأمره.. بل ربما عطّلها كلها.. وقد تعمَّدَ أن يُعدمَ الأسبابَ تمامًا مع زكريا وابراهيمَ.. حتى لا يبقى في قلوبِهم أيُّ تعلقٍ إلا بهِ.. ولا يبقى في القصةِ أيُّ منطقةٍ رماديةٍ تنسبُ لغيرِ اللّهِ.. وليعلمَ كلُّ أحدٍ أنَّهُ لا يحتاجُ للأسبابِ اساسًا.

كلمةٌ واحدة.. فإذا المستحيلُ يلد طفلاً.

وما أجملها من لفتة حين نَذكر الآن نوحاً عليه السلام..

نداءٌ قصير.. كلمات قليلة.. شكوى غير مفصلة.

﴿ربِّ إني مغلوبٌ فانتصرْ﴾

ثم تأمّلْ سرعةَ الإجابةِ:

﴿ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبونَ﴾

﴿ونجيناهُ وأهلَهُ من الكربِ العظيمِ﴾

ما كانَ إلا أن فُتحتْ أبوابُ السماءِ بماءٍ منهمرٍ.. وفُجرتِ الأرضُ عيونًا.. فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قدرَ.. وحُملَ نوحٌ على ذاتِ ألواحٍ ودسرٍ.. تجري بأعينِ اللّهِ.. جزاءً لمن كُفِرَ.. وتركها سبحانه آيةً.. فهلْ من مدكرٍ؟

﴿ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبونَ﴾

فلنعم المجيبونَ.. بأحسن الصور.

اللّه.. ما أحلاها من كلمةٍ ترفع الروحَ من ضيقِ الدنيا إلى سعةِ الدنيا والآخرةِ.. وتنقل القلب من قول بني إسرائيل: إنّا لمدركونَ.. إلى قول موسى: كلا إن معي ربي سيهدينِ.. إلى لا تخفْ ولا تحزنْ إنا منجوكَ.. إلى أقبلْ ولا تخفْ إنك من الآمنينَ.

ما أعذبها من كلمة يا رب.. كم تُشعرُ الإنسانَ أنَّ بينهُ وبينَ السماءِ وُدًّا.. وأنَّ كرمَ اللّهِ يحيطُ بهِ من كلِّ الجهاتِ.. وتطمئنه على الدعوات المرفوعة.

كم فيها من طمأنةٍ للقلبِ المهزوزِ.. كم فيها من وعودٍ خفيةٍ وعهودٍ.

كم يهتمُّ بنا سبحانهُ ونحنُ لا شيءَ في خلقِهِ..

وينزلُ القرآنَ ليسلينا عن فقدِهِ في الدنيا.. ولنتصبرَ بحديثِهِ حتى نقابلَ وجهَهُ الكريمَ في الآخرةِ..

يذكرنا بنوحٍ عليه السلام وقصته حتى نطمئن.. ونتأكدَ من وجودِهِ معنا وبقائِهِ بقربِنا.

عبدي.. لن يخيبَ ظنكَ.. إني لا أتركُ عبادي ابداً.

إنك لا تستجدي النصرَ من ضعيفٍ.. انظرْ ماذا فعلنا لنوحٍ.

إنك لا تستعينُ على نصرتِكَ بعاجزٍ.. انظرْ كيف سخّرنا الأرضَ والسماءَ لنصرته.

إنك لا ترفعُ حاجتَكَ إلى من يهملكَ.. انظرْ كيف أهلكتُ اعداءَهُ.

وانظرْ كم احبُّ عبادي.. صنعتُ سفينتَهُ على عيني.. وأجريتُها على عيني.. بإلهامي ووحيي.. تحتَ رقابتي ورعايتي وحفظي.

ومن رحمتِهِ بعبادِهِ..

أنَّ ذلِكَ الوعدَ يشملُ كلَّ عبادِهِ ممن يحبهمُ وممن يبغضهمُ.. بحسبِ الحالِ وما تقتضيهِ حكمتُهُ.

فيعجلُ الإجابةَ لحكمِة.. ويؤخرُها لحكمة.. ويعطي السائلَ خيراً مما سألَ لحكمة.

حييٌّ كريمٌ.. يستحي من عبدِهِ إذا رفعَ إليهِ يدَيْهِ أن يردَّهُما صفراً خائبينَ.. لا يليقُ ذلك بِكرمه.

بل كتبَ على نفسِهِ أنَّهُ ما من رجلٍ يدعوهُ بدعاءٍ إلا استجيبَ لَهُ.

ولو لم يكن قريباً من عباده يجيبُ دعائهم ما سمى نفسَهُ القريبَ المجيبَ.. وطوبى لمن أحسنَ الظنَّ.

هذهِ كلماتٌ طيباتٌ باقياتٌ..

تنزلُ منزلَ البشرى والطمأنينة لكلِّ من لديهِ حاجة يحملُها في قلبِهِ.

في كلِّ زمانٍ.. وفي كل مكانٍ على أيِّ حال.

كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

فإنما تُروى هذه القصص لترغِّب المؤمنَ في رحمة الله.. وتعلمَهُ أن يراها حينَ تضيقُ الأمورُ وتشتدُّ الكروب. ويلتمسَها قريبَة منه لا شكَّ أنَّها آتية.

فالرحمة - كما تعلمنا في قصصِ الأنبياءِ - لا تغيبُ في الشدائدِ.. بل كثيراً ما تأتي معَها وتولدُ من رحمِها.

وأودُّ أن أذكركَ أنَّ الإجابة ليست غائبة عنكَ ولا غريبة عليكَ.. بل جاريةٌ عليكَ منذ زمنٍ.

فبعضُ ما سألتَ قد أُعطيتَهُ.. وبعضُهُ تعيشُهُ الآنَ ولا تنتبهُ.. وبعضُهُ مؤجلٌ لحكمة.. وكلُّ ذلك داخلٌ في دائرة العطاءِ.

ألم يستجبْ لَكَ من قبلُ؟ ألم تُجَبْ دعوة ظننتَها بعيدة؟

تلكَ خبرتُكَ معَهُ.. وتلكَ حجتُكَ على قلبِكَ.. وتلكَ الثقة التي لا ينبغي أن تضعفَ.

فادعُ الله وأنت موقنٌ بالإجابة.. وإن لم ترَ الأسباب فقد عرفتَ ربَّ الأسباب.

ادعُه.. فما رفعتَ يديك إليه يومًا إلا وكان دعاؤك واقعًا لا محالة.. وإنما يؤخَّر إن أخره ليكتمل خيره.

لقد عاهدنا ربُّنا فقال:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

ولا أحد أوفى بعهده منه.

دعوة زكريا الثانية ؟!..

كانَ زكريا يعلَمُ كم يُعاني القلبُ الذي لا يعرِفُ الدعاءَ..

وكيفَ يكونُ مكشوفًا أمامَ الدُّنيا.. أعزلَ أمامَ تقلّباتِها.. يُراقبُ الأيّامَ وهيَ تنقلبُ.. ولا يملِكُ بابًا إذا أُغلِقَتِ الأبوابُ.

إن العقلُ الذي لا نافذةَ لهُ على السَّماءِ لا يعرِفُ كيفَ يهدأُ ويسكُن.

كيفَ لا يبكي مَن علِمَ أنَّ صوتَهُ لا تعرِفُهُ السَّماءُ!

وكيفَ يهنأُ عيشُ مَن لم يسألِ اللّهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ.. مِن فتنٍ تمسُّ الدِّينَ.. وتقلباتٍ تطالُ الأهلَ.. ومن الدُّنيا التي تتسلَّلُ إلى القلب.. والأقدارُ التي تُفاجئُ الإنسان على غيرِ ميعادٍ.. وهو يعلَمُ أنَّ الدعاءَ يردُّ القدرَ.. وحصنٌ قبلَ وقوعِ البلاء.. ونجاة إذا نزلَ القضاء.. ثم يمنعُهُ.

فبأيِّ يقينٍ ينتظرُ الخيرَ والسَّلامةَ غدًا مَن لم يطرُقْ بابَ اللّهِ اليومَ؟

وبأي دليل يأمل الخير من لم يسأل الله رضاهُ وجنّتَهُ ولم يستعِذْ مِن سخطِهِ وعذابِهِ؟

لكنَّ زكريا عليهِ السَّلامُ كانَ أبعدَ ما يكونُ عن هذا التيهِ.

كانَ الدعاءُ سكنَهُ وبيتَهُ.. وحصنَ عقلِهِ وقلبِهِ.

يحميهِ اعتمادُهُ على اللّهِ مِن كلِّ تردُّدٍ.. ويعصمه مِن "لو" التي تفتحُ عملَ الشيطانِ.. ومِن الانكسارِ أمامَ النتائجِ.

فإن كان قد فعلَ ما بوسعهِ ودعا اللّهَ.. انتهى القلق.. لا حزنَ بعدها ولا تأنيبَ.. تلكَ جنّةُ الدُّنيا.

كانَ زكريا يعلَمُ أنْ لا أمانَ إلا بعدَ دعاءٍ..

كانَ اللّهُ سندَهُ الأوّلَ والأخيرَ في هذه الدُّنيا.. فلا تطيبُ لهُ ساعةٌ إلا إن رفعَ فيها دعوةً.. فيمضي في الدُّنيا سالمًا غانمًا ضامنًا على اللّهِ.. كأن بينه وبين الله عهداً لا يُخلفه.

وإذا تكالبتْ عليهِ الدُّنيا أو انهارتْ مِن حولِهِ.. فقلبُهُ في عصمة وأمانٍ منها.. ينتظرُ ما عند الله من عطاءَ الآخرةِ.. ويرجو نعيمَ الجنّةِ.

كانَ يعلَمُ أنَّهُ لن ينجو العقلِ من الاضطراب إلا بالدعاءِ.

ويظنُّ بربِّهِ أنَّهُ معهُ في كلِّ أحوالِهِ.. مهما جاءتْ بهِ الأقدارُ.. وأنَّهُ لن يَتركُهُ وقد توكَّلَ عليهِ.. فذاقَ عزّةَ الإسلامِ.. وحلاوةَ الإيمانِ.. وسكون القلبِ بالاعتماد على اللّهِ.. وزادَ أنسُهُ وقوّتُهُ بما يتردَّدُ في أعماقِهِ مِن نداءِ ربِّهِ: سَل تُعطَ.. سَل تُعطَ.

وبعد أن جَرَّبَ زكريا عليهِ السَّلامُ أثرَ القُربِ.

وعرَفَ أنَّ لهُ عندَ اللّهِ صوتًا مسموعًا.. وأيقنَ أنَّ الدعاءَ عندَ اللّهِ أثمنُ ممّا يخطرُ على قلبِ بشرٍ.. اشتاقَ قلبُهُ إلى تمامِ الطمأنينةِ.

ومِن هذا المكانِ الهادئ البعيدِ عن كلِّ قلقٍ واضطرابٍ.. مِن مقامِ الأُنسِ والقُربِ هذا.. قالَ زكريا عليهِ السَّلامُ:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾

أرادَ أن يرى شيئاً من الغيبَ.. أرادَ أن تتحوّلَ البشارةُ إلى علامةٍ.. والوعدُ إلى أثرٍ في الجسدِ.

أرادَ علامةً تُسكّنُ القلبَ حتى يجيءَ الوعدُ.. أرادَ أثرًا محسوسًا يُخبرُهُ أنَّ ذلكَ لم يعُدْ غيبًا بعيدًا.. بل صارَ قريبًا يُوشكُ أن يُدرَكَ.. ليستقرَّ القلبُ على ما وعدَهُ اللّهُ بهِ ويهدأَ اضطرابُهُ.. وليتحوّلَ الوعدُ في داخلِهِ مِن تصديقٍ هادئٍ إلى يقينٍ مُشاهَدٍ.

فأبى اللّهُ أن يتركَ زكريا وحيدًا.. وأرادهُ أن يهنأَ بالاعتمادِ عليهِ.

أبى اللّهُ أن يتركَ قلبَهُ نهبًا للتيهِ.. وليعلمَ زكريا أنَّ اللّهَ لا يتركُهُ سُدى.

أبى اللّهُ إلا أن يُوطّدَ لزكريا علاقتَهُ بربِّهِ.. ويُبهِرَهُ بما يرى مِن آلائِهِ ومعجزاته.. ويسوقَ الأحداثَ على طريقةٍ يُريهِ بها مِن آلائِهِ ما يُقرّبُهُ إليهِ..

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾

ونُلهمَهُ أنَّا نُحبُّ دعاءَهُ.

فلما آنَ الأوانُ.

أجابَهُ اللّهُ بعلامةٍ عذبةٍ رقيقةٍ.. تدلُّ على أنَّ الوعدَ اقتربَ.

أن يُحبسَ لسانُكَ عن كلامِ الناسِ ثلاثَ ليالٍ.. وأنتَ صحيحٌ سويٌّ.. مِن غيرِ مرضٍ ولا علّةٍ.

وكانتْ تلكَ الآيةُ رحمةً فوقَ رحمةٍ.. وقربًا فوقَ قربٍ.. واستجابةً تُتمُّ نعمةَ الدعاءِ.. ليحتفي زكريا بعبوديّتِهِ.. ويزدادَ سكونًا وهدوءً ويقينًا.

﴿آيَتُكَ﴾

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

اختارَ اللهُ لهُ آيةً تُعطّلُ المألوف.. وتُلفتُ القلبَ.. وتقطعُ الطريقَ على الشكِّ.

آيةً لا يملكُ العقلُ لها تفسيرًا.

فإذا وجدَ نفسَهُ عاجزًا عن الكلامِ مِن غيرِ مرض ولا سببٍ.. علِمَ أنَّ ما بعدَ ذلكَ ليس ببعيدٍ.. وأنَّ يدَ القدرةِ قد بدأتْ تعملُ.

وهكذا جاءت الاستجابةُ الثانيةُ.

فلما جاءَ الصباحُ.. خرجَ زكريا عليهِ السَّلامُ على قومِهِ مِن المحرابِ.. لكنهم ما إن اقتربوا وانتظروا كلامَهُ.. لم يتكلَّمْ.

تسبيح زكريا ؟!..

القلوبُ.. وإن بُشِّرَتْ واطمأنَّتْ.

تحتاجُ إلى مَنْ يُثبِّتُهَا.

وإنْ صدَّقَتِ الوعدَ.. فقد تَزِلُّ بها النفسُ في زمنِ الانتظارِ.

فالانتظارُ امتحانٌ خفيٌّ لليقين.. تضعف فيه القلوب.. وتكثر فيه الأسئلةُ الصامتة.

لهذا.. لم يتركِ اللهُ زكريا بعد أن قال له:

﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

إلا ووصَّاهُ وصيَّةَ مَنْ يعلمُ خفايا القلوبِ.. ويعلم دواءها:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

لا تجعلِ الزمنَ الفاصلَ بين الوعدِ وتمامِهِ مسرحًا للأسئلةِ الصامتةِ.. ولا فراغًا يتسلَّلُ إليهِ الشيطانُ بالاستعجالِ والأوهام.

الذكرُ حراسةٌ للنِّعَم.. وتوقُّعُ للخيرِ.. وعيشٌ في روحانيات الإجابة ونعيمِ المعيَّةِ قبل تحقق العطاء.

القلبُ إذا علمَ أنَّ اللهَ سيستجيبُ..

قد ينشغلُ بالمنتظَرِ وينسى المُنعِمَ.

فأرادَ اللهُ لزكريا قلبًا لا يبرحُ البابَ.. ولا يغادرُ مقامَ القربِ.. ولا يفقدُ السكينةَ بحسابِ الأيامِ.. ولا ينشغلُ بالموعدِ عن صاحبِ الموعدِ.

﴿وَسَبِّحْ﴾..

أي نزِّهْ ربَّكَ عن الظنونِ.

وعن استعجالِ القلبِ.

وعن التوقيتاتِ التي يضعهَا العقلُ.

وعن سوءِ التفكيرِ.. وقلةِ الثقةِ.

وعن صورةٍ ترسمهَا ثم تُرهِقُكَ إنْ تأخَّرَتْ.

فإنَّهُ يرى من اللطفِ ما لا ترَى.

ويعلم من الخير ما لا تعلم.

﴿وَسَبِّحْ﴾..

أي نزِّهْ ربَّكَ عن الشكِّ.

اهدأْ عند وعدِ اللهِ واحتضنِ اليقينَ العظيمَ... ولا تُقحمْ قلبكَ يا زكريا في كيفَ ولا متى... ولا تُثقِلِ اليقينَ بأسئلةٍ لا تزيدُهُ إلا تعبًا.

ليس لكَ من الأمرِ شيءٌ.

ليس تدبيرك أرحم من تدبيره.

لا يؤخّر الخير عبثًا.

سلِّمِ الأمرَ تجدْنا نحنُ أولى بكَ منك.

﴿وَسَبِّحْ﴾..

لتُفرغَ قلبكَ من وهمِ التدبيرِ.. وتسلِّم الأمرَ لصاحبِهِ الحقيقيِّ.. وتسكنَ إلى اختيارٍ يعلمُ اللهُ فيهِ ما لا تعلمُ.

أنتَ لستَ صاحبَ الأمرِ.. صاحبُ الأمرِ أرحمُ بكَ منك.

فليهدأ بالك.. ودَعْ قلبكَ يستريحُ.. لا تنسَ أنك في حضرةِ الربِّ الكريمِ.

يُكدِّرُ الاستعجال صفوَ الإيمانِ.

ويبعثرُ الخوفُ السكينةَ.. ويشقُّ عصا اليقينِ.

ودواءُ ذلكَ كله حسنُ الظنِّ باللهِ.

إذا دخلَ حسنُ الظنِّ القلبَ.. خفتتْ جميعُ الأصواتِ.. وانحلَّتْ عُقَدُ الخوفِ كلها كأنَّ يدًا خفيَّةً تقطعُ حبالَهَا.

ولا يتركُ للنفسِ سؤالًا يُرهقُهَا.. ولا جوابًا يُحيِّرُهَا.. وهو وقودُ الصبرِ والثباتِ.. ويصنَعُ الرجالَ الأشاوسُ.

وهذهِ المعاني جميعًا يجمعهَا قولُهُ: ﴿وَسَبِّحْ﴾.

أي كلُّ ذلكَ يفعلهُ التسبيحُ.

سبِّحْ..

لأنَّ اللهَ لا يختارُ إلا الخيرَ المحضَ.. ولا يؤخِّرُ شيئًا إلا ليضعَهُ في أوانهِ الأجملِ.. ولا يمنعُ إلا ما لو أُعطيَ لأوجعَ وأفسدَ.

ومن أحسنَ الظنَّ باللهِ لا بدَّ أن يعيشَ آمنًا.. ولو رأى الغيبَ لندمَ أنَّهُ أساءَ الظنَّ.. ولو طالَ انتظارُهُ ما طرفتْ عينُهُ قط.

وهكذا يكون مفتاحُ المُلك: قلبٌ مطمئنٌّ باللهِ لا يستوحشُ.. مؤمنٌ بحكمتِهِ ورحمتِهِ.. ينزِّهُهُ عن سوءِ الظنِّ.. لا يتَّهِمُ تدبيرَهُ.. ولا يعترضُ على قسمتِهِ.. ولا يظنُّ أنَّ ما فاتَهُ كان خيرًا ممَّا اختيرَ لهُ.. ويفرحُ بقسمتِهِ.. ويضعُ فيه الثقةَ التامَّةَ.

يسلِّمُ أمرَهُ لليدِ التي أرحمُ بهِ من نفسِهِ.

ويوقنُ بحسنِ اختيارِهِ.. ويراهنُ أنَّ ما يأتي منهُ خيرٌ محضٌ.. وأنَّهُ لا يخطئُ فيهِ.

لا داعي للخوفِ في حضرة التسبيح.

ليس بعدَ ﴿ادْعُونِي﴾ إلا: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وهذا الوعدُ بالإجابةِ يحتاجُ إلى سكينةٍ تحرسُهُ.

تحرسُهُ من النفسِ التي تطالبُكَ بإقناعِهَا.. وتطالبُ بفهمِ كيفَ ستأتي الإجابةُ ومتى وبأيِّ صورةٍ..

فسبِّحْ..

نزِّهْ المجيبَ عن تفكيرِكَ المحدودِ.

قد دعوتَ وأديتَ ما عليكَ.. وقد وُعدتَ بالإجابةِ على كلِّ دعوةٍ.. فاتركِ الأمرَ لمن وعدَ.. إن النفس لا تطمئنُّ بالإقناعِ.. بل بالمعيَّةِ.. وبإقناعِهَا أنَّهَا في المعيَّةِ.

فسبِّحْ..

فالقلبُ بعد الدعاءِ يدخلُ مرحلةً خطِرةً.. مرحلةَ التفكيرِ الزائدِ.. يحاولُ أن يُقنعَ نفسَهُ أنَّ اللّٰهَ سيفعلُ.. ثم يشكُّ.. ثم يبحثُ عن علاماتٍ.. ثم يُرهقُ نفسَهُ بالسيناريوهاتِ.

فسبِّحْ..

أي نزِّهْ ربَّكَ عن أن يحتوي الأمرُ عقلَكَ.. وعن أن تفهمَ حكمتَهُ بمنطقِكَ المحدودِ.. وعن أن تقيسَ أفعالَهُ بتجاربِكَ السابقةِ.

الأمرُ سيأتي أرحمَ ممَّا تتصوَّرُ.

التسبيحُ.. استراحةٌ للقلبِ.

وتلقينٌ لهُ أنَّ اللّهَ أحرصُ على نفسِكَ وصحتِها وراحتِها ونجاتِها أكثر منك.. فأخرجْ نفسكَ من مركزِ القيادةِ.. وأعدهَا إلى مقامِ العبوديةِ.

إنَّكَ تضعُ على عاتقِكَ ما يُرهقُكَ.. لا دورَ لكَ في ترتيبِ النهاياتِ.. ولا ضبطِ التوقيتاتِ.

فألزمْ غرسكَ.. ولا تُرهقْ قلبكَ وبدنَكَ.. وانتظر من اللّه الواسع كل جميل.

اللّه واسع.. وبعضُ أقدارِهِ تفوقُ قدرتكَ على إدراكِهَا.. وما يأتيكَ من عندهِ سيكونُ أوسعَ من أن تدركَ ما وراءَهُ من لطائفِ الغيبِ كلِّهَا.

لهذا.. إن تزاحمَ عليكَ الفكرُ سبِّحْ.

لا تناقشْ نفسكَ.. بل سلِّمْهَا للهِ.. وقلْ لهَا: اللّهُ أعلمُ..

التسبيحُ يجعلكَ تزهدُ في التفتيشِ عن الإجابةِ كلَّ دقيقةٍ.. وتعاقبُ قلبك على الإنتظار وكأنه مُذنب.. وهو برئ.

ويجعلكَ لا تربطُ هدوءَكَ بحصولِ الحاجةِ.. بل بتوقُّعِ الخيرِ.. وبحسنِ الظنِّ باللهِ.

سبِّحْ.. بلا تفكيرٍ.. ولا أوهامٍ.. ولا قلقٍ.

هذا هو التسليمُ المطلوب من زكريا عليه السلام.

هذا هو الإيمانُ الذي يُخفِّضُ جميعَ الأصواتِ في العقلِ.

ولكن..

كيفَ للتسبيحِ أنْ يكونَ علاجاً أو بديلاً للتفكيرِ في الأحلامِ والدعواتِ؟ أيأمرُ اللّهُ بكبتِ الانتظارِ والحماسِ وإيقافِ التفكيرِ والتدبيرِ والتأذي من بُعدِ الأمنيةِ وإيقافِ العقلِ وأنْ يُستبدلَ ذلكَ كلَّهُ بَ التسبيحِ؟ ما المعنى الخطيرُ الذي يحملُهُ التسبيحُ يجعلُهُ بهذهِ الأهميةِ؟ كيفَ يمنعُ التسبيحُ هذا القلقَ ويطمئنُ هذا القلبَ؟

منَ الواضحِ أنَّ زكريا لمْ يكنْ مطالباً بكبتِ التفكيرِ ولا إيقافِ الحماسِ ولا التمثيلِ بنسيانِ الحاجةِ وعدمِ الانتظارِ.

لمْ يطلبِ اللّهُ منْ زكريا الإلغاءَ.. بل التحويلَ.

فللإنتظار طاقةٌ ضخمةٌ منَ الشوقِ والخوفِ والحساباتِ والسيناريوهاتِ.. وسؤالٌ صامتٌ: أيحدثُ ما أتمنى؟ أمْ لن يحدث؟ ومتى؟ وكيفَ؟ فتتحولُ إلى قلقٍ.

والذكرُ لا يأتي ليسكتَ العقلَ ولا ليخدرَهُ ولا ليشغلكَ ويسليكَ.. بل لشيءٍ أخطرَ وأعمقَ: لينقلَ مركزَ الثقلِ منَ الشيءِ إلى اللّهِ.

لأنَّ "سبحانَ اللّهِ" ليسَ معناها مجردَ التنزيهِ.. بل وراءَها معنًى محددٌ منَ التنزيهِ:

الأمرُ أكبرُ منْ تصوري.. أنقى منْ خوفي.. أحكمُ منْ تدبيري.

سبحانَ اللّهِ أنْ يضيعَني.. سبحانَ اللّهِ أنْ ينساني.. سبحانَ اللّهِ أنْ يهملَ ندائي ويضيعَ دعائي.

سبحانَ اللّهِ أنْ يصبحَ الخيرُ في غيرِ موضعِهِ.. سبحانَ اللّهِ أنْ يكونَ الخيرُ في غيرِ اختيارِهِ.. سبحانَ اللّهِ أنْ يكونَ الأمرُ بيدي ويسلمني إلى نفسي.

وهنا.. أنا عندَ ظنِّ عبدي بي..

وهنا.. العقلُ يصمتُ.. ويطمئن.

فالقلقُ يأتي منَ الإحساسِ إنكَ تحملُ المسؤوليةَ عنْ نتيجةِ الدعاءِ.

والتسبيحُ ينزلُها منْ على أكتافِكَ.. ويجعلُكَ تتوقفُ عنِ التعاملِ معَ الوقتِ على أنهُ عدوٌّ.

التسبيحُ لا ينسيكَ الحاجةَ التي تتمناها ويشغلكَ عنها.. بل ينسيكَ إنكَ وحدكَ هنا.

وهذا الأنسُ بحسنِ الظنِّ باللهِ منْ نعيمِ اللهِ المعجَّلِ.

وَسَبِّحْ.. بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ..

لأنَّ للقلقِ مواعيدَ.

للصباحِ خوفٌ منَ الآتي.. ولليلِ حزنٌ واسترجاعٌ وتضخيمٌ لما فاتَ..

وللتسبيحُ معنىً يحميكَ منْ هذا التفكيرِ.

والمعنى هوَ:

لا أضيع وأُحرمُ وأنا معَ اللهِ.. لا أخسرُ وأنا أسبح الله.. أنا لستُ واقفاً أمامَ بابٍ مغلقٍ.. بل أنا جليسُ صاحبِ هذا البيتِ.. معي رب هذه المملكة.

فإنْ فكرتَ.. فبلا قلقٍ.. حيث يطهرُ التسبيحُ التفكيرَ ويحررُ التوترَ.

لذا قالَ اللّهُ لزكريا: وَسَبِّحْ.

اجعلْ قلبَكَ هنا.. معَ ربِّ السماواتِ والأرضِ.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾

يا زكريا تفرغْ لعبادتي وانشغلْ بما خلقتُكَ لهُ.. املأْ قلبَكَ غنًى وأسدْ فقرَكَ.

ينبغي على منْ أحدثتُ إليهِ نعمةً أنْ يكثرَ منْ ذكري.. أغنيهِ بما عندهُ منَ النعمِ منْ قبلِ أنْ يأتيَهُ ما يتمنى..

وهذهِ إشارةٌ خاصةٌ لفضلِ أذكارِ المساءِ التي هيَ العشيُّ..

وأذكارِ الصباحِ التي هيَ الإبكارُ.

كأنَّ اللّهَ يربي نبيَّهُ على أنَّ بعضَ المراحلِ لا تحتاجُ كلاماً.

بعضُ المراحلِ تحتاجُ صمتاً مليئاً بالذكرِ.

بعضُ الأمورِ لا يقضيها التدبيرُ ولا التفكيرُ.

لا ينقذكَ حذرُكَ وقلقُكَ.

بعضُ الأحلامِ لا تحتاجُ إلا عبادةً مستقرةً هادئةً.. خلوةً يُسقى فيها اليقينُ ويُعادُ فيها ترتيبُ القلبِ.

وإنْ كانتْ يوميةً فنعمَ ما صنعتَ.. ونعمَ العبوديةُ هذهِ.

هكذا كانَ الأنبياءُ وورثةُ الأنبياءِ.

قالَ موسى:

﴿رَبِّ ٱشرَح لِي صَدرِي﴾ ﴿وَيَسِّر لِيٓ أَمرِي﴾

﴿وَٱحلُل عُقدَة مِّن لِّسَانِي﴾ ﴿يَفقَهُواْ قَولِي﴾

﴿وَٱجعَل لِّي وَزِيرا مِّن أَهلِي﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾

﴿ٱشدُد بِهِ أَزرِي﴾ ﴿وَأَشرِكهُ فِيٓ أَمرِي﴾

ثم قالَ:

﴿كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرا﴾ ﴿وَنَذكُرَكَ كَثِيرًا﴾

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرا﴾

فقالَ ربُّ السماواتِ والأرضِ عزَّ وجلَّ:

﴿قَد أُوتِيتَ سُؤلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

﴿وَلَقَد مَنَنَّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخرَىٰٓ﴾

زكريا.. والدعوة إلى التسبيح ؟!..

اما بعدَ البشرى والوصيةِ..

فقد وصلَ القومُ إلى المسجدِ ليصلوا فيهِ كالعادةِ.. فخرجَ زكريا عليهم من مكانِ صلاتهُ الذي بُشرَ فيهِ بالولدِ.. وجههُ مُشرقٌ من نورِ البشرى.. يشيرُ إليهم بالإشارة أنْ يسبحوا اللّهَ معهُ.. ويشكروهُ مع كل بكورٍ للنهارِ وآخره.

يا أبناء العم.. المحيا محياكمُ.. لا أكتمُ عنكم وصيةَ ربي.. إنَّ اللّهَ معَ الجماعةِ.

سبحوا واشكروا ربَّ العالمينَ المنزهَ عن كلِّ عيبٍ وسوءِ ظنٍّ.. فإنَّ اللّهَ سيبعثُ من يحملُ الدينَ بعدنا..

سبحوا.. فإن التسبيح هو البيئةُ التي تنمو فيها النِعَمُ.. وهوَ الشكرُ للمنعمِ..

لمْ ينعزلْ زكريا عنهم ولمْ ينغلقْ.. وأبى إلا أنْ يشاركهم العبادةَ ليفرحوا معاً.. وأبى إلا أنْ يوصيهم بالتسبيحِ معهُ بأي وسيلة حتى لو وصل الأمر إلى أن يفقدَ النطقَ.. فإنَّ العبدَ إذا مُنعَ الوسيلةَ لا يُمنعُ الرسالةَ.

ومنْ هذا المقامِ العالي جدًا نتعلمُ من نبيِّ اللّهِ زكريا:

حينَ يكرمكَ اللّهُ.. لا تجعلْ نفسك أنتَ الموضوعَ.. بلْ اجعلْ ربكَ هوَ الموضوعَ.. وأنَّ خيراً للمؤمنِ ألا ينعزلَ.. بلْ يبقى ويحببْ منْ حولهُ في ربِّ العالمينَ.. ويأبى إلا أنْ يُعبدَ اللّهُ في جماعةٍ.. فعبادةُ الجماعةِ أأمنُ وأوثقُ منْ عبادةٍ ينفردُ بها صاحبها.

خرجَ إليهم منَ المحرابِ ولمْ ينساهم.. لمْ تشغلهُ نعمتهُ الخاصةُ عن قلوبٍ ما زالتْ تحتاجُ التثبيتَ.

كانَ يستطيعُ أنْ ينشغلَ بآيتهِ.. بانتظارهِ.. بفرحهِ الصامتِ بينهُ وبينَ نفسه.. لكنهُ خرجَ لأنَّ الداعيةَ الحقَّ لا يكتفي بالسلامةِ لنفسهِ.. ولا يطمئنُّ ما دامَ غيرهُ لا يزال مهددًا بالغفلةِ.

لا أترككم وحدكم في هذا الزمانِ.. ولا أُهملُ قلوبكم وإنْ كنتُ مشغولاً بآيةٍ تخصّني.. بلْ نَثبُتُ معاً.. ولا نتركُ الطريقَ بلا أنسٍ.. حتى لا يشعرَ أحدٌ أنهُ تُركَ وحدهُ في الطريقِ..

فأوحى إليهم أنْ:

﴿**سبحوا بكرةً وعشيًّا**﴾

بقلبٍ عامرٍ بالإيمانِ.

بكرةً.. حينَ تبدأُ الدنيا هجومها.

وعشيًّا.. حينَ تتعبُ القلوبُ مما حملتْ.

بكرةً.. قبلَ أنْ تختطفكم الأشغالُ.

وعشيًّا.. بعدَ أنْ تُتعبكم الحياةُ.

بكرةً... لتبدأَ الحياةُ باسمِ اللهِ.

وعشيًّا... لتُغلقَ الحساباتُ على رضا اللهِ.

علّمهم أنَّ الثباتَ لا يأتي بكثرةِ الخطبِ.. بلْ بكثرةِ الذكرِ.. فإنَّ كلَّ الخطبِ تدورُ حولَ الذكرِ.. وأنَّ جميعَ الأعمالِ إنما شُرعتْ إقامةً لذكرِ اللهِ تعالى.. والمقصودُ بها تحصيلُ ذكرِ اللهِ تعالى.

والقلبُ الذاكرُ قلبٌ يعتاد الرجوعَ.. ولا يَضِلّ طويلًا

وإنْ ابتعدَ.. عرفَ طريقَ العودةِ.

والصدرُ إذا ضاقَ يتسعُ بالتسبيحِ.

ومالا يقضى بالفكرِ يقضى بالذكرِ.

وهكذا علّمَ اللّهُ زكريا وعلّمَ به من بعدهُ أنَّ الذكرَ خلاصةُ الطريقِ..

وزادَ السائرينَ إلى ربِّ العالمين.

وأنَّ الذاكرَ لا يخافَ فواتَ.

وأنَّ القلقَ وهمٌ.. وسرابٌ.. يسرقُ من العبدِ وقتهُ.. وصفاءُ بالهِ.

لصٌّ خفيٌّ.. يُفسدُ عليهِ عبادتهِ.. ويُوهمهُ أنَّ النجاةَ في إحكامِ القبضةِ.. فينشغلُ بالتدبيرِ.. وأولوا التدبيرِ هلكى.

أما من أَنسَ بذكرِ ربهِ لم يعدَ للخوفِ سلطانٌ على قلبهِ.. وأحبَّ لقاءهُ ولم يخفْ أعداءهُ.

لا تروّعهُ الوجوهُ.. ولا تُفزعهُ الجموعُ.. ولا يتعلّقُ قلبهُ إلا بمن بيدهِ كلُّ شيءٍ.

وتسهلُ عليهِ العبادةُ.

يا زكريَّا.. ما تركَكَ ربكَ من قبلِ طرفةِ عينٍ.. لا تظنُّ بهِ اليومَ خلافَ ما عرفتَ بالأمسِ.. واجعلِ الذكرَ صاحبكَ.. فإنْ وجدتَ قلبكَ يألفهُ.. ويحنّ إليهِ.. ويلزمهُ.. فاعلمْ أنَّ اللّهَ يريدُ بكَ خيرًا عظيمًا.. ذهبتَ بالأجرِ العظيمِ كله.. ما فاتكَ شيءٌ.. وسبقْتَ من شُغلوا عن الطريقِ.. ولم يلحق بك أحد.

للذاكرينَ من الفضلِ ما تعجزُ عنهُ مقاديرُ البشرِ..

أجرٌ يفوقُ إنفاقَ الذهبِ والورقِ.. وعتقَ الرقابِ.. والحملَ على الخيلِ في سبيلِ اللهِ.. وما يعدلُ الضربَ بالسيفِ في سبيلِ اللهِ.. وإنْ تلقى عدوكَ فتضربُ عنقهُ ويضربُ عنقكَ.

أبشروا يا أهل الذكر بصدقاتٍ لا تحصى.. وحطَّ للخطايا لا يُعدُّ.. ومعيةُ اللهِ في الشدةِ والرخاءِ.. وحصولُ الأمنِ في الدنيا والآخرةِ.. والأمانُ من النفاقِ.. ومنجاةٌ من عذابِ اللهِ.. ومحبةٌ في الأرضِ والسماءِ.. وصلاةٌ من اللهِ والملائكةِ.. والأمانُ من الحسرةِ يومَ القيامةِ.. وغراسٌ في الجنةِ بكلِّ تسبيحةٍ.. ومباهاةٌ بكم في الملأِ الأعلى.. ونورٌ في الدنيا.. ونورٌ في القبرِ.. ونورٌ في المعادِ.. ونورٌ يسعى بين أيديكم على الصراطِ.

ابشروا بحفظٍ من الغفلةِ.. وتسهيلٍ للصعابِ.. وتيسيرٍ للعسيرِ وتخفيفٍ للمشاقِّ.. وانفراجٍ للكربِ والشدائدِ وهوانٌ للأمورِ العظامِ.

يا عبدَ اللهِ..

ما استجلبت نعمَ اللهِ عزَّ وجلَّ واستُدفعت نِقَمَهُ بمثلِ ذكرهِ.. وما استنارتِ القلوبُ والقبورُ بمثلِ ذكرهِ.

إن الذكر يعينُ على طاعةِ الله.. ويُحببها إلى العبد.. ويُسهلها عليهِ.. ويُلذّذها لهُ.. ويجعلُ قرةَ عينهِ فيها.. ونعيمهُ وسرورهُ بها.. بحيثُ لا يجدَ لها من الكلفةِ والمشقةِ والثقلِ ما يجدُ الغافلُ.. والتجربةُ شاهدةٌ بذلك.

سبحْ اللّهَ تزولُ الوحشةُ التي بينكَ وبينَ ربكَ.. وتُسَدَّ فاقتُكَ.. ويحلو مجلسُكَ.. ويَسعدُ بكَ جليسُكَ.. ويصيرُ مجلسُكَ مجلسَ الملائكةِ.

يا عبدَ اللّهِ..

ليسَ للخائفِ الذي اشتدَّ خوفُهُ من عذابِ اللّهِ أنفعُ من ذكرِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.. أما الغافلُ.. خائفٌ معَ أمْنِهِ.

وإذا سبحَ اللّه بأوصافِ كمالِه ونعوتِ جلالهِ قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: صدقَ عبدي.. ولم يُحشرْ مع الكاذبينَ.. ورُجي لهُ أن يُحشر مع الصادقينَ.

وفي دوامِ ذكر العبد في الطريقِ.. والبيتِ.. والحضرِ.. والسفرِ.. والبقاعِ.. تكثيرُ الشهودِ للعبدِ يومَ القيامةِ.. فإنَّ البقعةَ والدارَ والجبلَ والأرضَ تشهدُ للذاكرِ يومَ القيامةِ.

وفي اشتغالهِ بالذكرِ اشتغالًا عن الكلامِ الباطلِ.. فإنَّ اللسانَ لا يسكتُ ألبتّة.. فإما لسانُ ذاكرٍ.. وإما لسانُ لاغٍ.. ولا بُدَّ من أحدهما.

وأفضلُ أهلِ كلِّ عملٍ أكثرهم فيهِ ذكرًا للهِ عزَّ وجلَّ.. فأفضلُ الصائمينَ أكثرهم ذكرًا للهِ عزَّ وجلَّ في صومهمْ.. وأفضلُ المُتصدّقينَ أكثرُهم ذكرًا.. وأفضلُ الحجاجِ أكثرُهم ذكرًا.. وهكذا سائرُ الأعمالِ.

والذاكرُ أكرمُ الخلقِ على اللّهِ تعالى واتقاهُ في أمرهِ ونهيهِ.

يا عبدَ اللهِ..

إنَّ الشياطينَ قد احتوشتْ العبدَ.. وهم أعداؤهُ.. فما ظنُّكَ برجلٍ أحاطَ به أعداؤهُ.. قد امتلأت صدورُهم عليهِ غيظًا.. وتربّصوا به من كلِّ جانبٍ.. وكلٌّ منهم ينالهُ بما يقدرُ عليهِ من الشَّرِّ والأذى.. ولا سبيلَ إلى تفريقِ جمعِهم إلا بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

يا عبدَ اللهِ..

إنَّ عُمالَ الآخرةِ في مضمارِ السباقِ.. والذاكرونَ هم أسبقُهم في ذلك المضمارِ.. ولكنَّ القترَ والغبارَ يمنعُ من رؤيةِ سبقِهمْ.. فإذا انجلى الغبارُ وانكشفَ.. رآهمُ الناسُ وقد حازوا قَصبَ السَّبْقِ.

يا عبدَ اللهِ..

إنَّ الملائكةَ تستغفرُ للذاكرِ كما تستغفرُ للتائبِ.

وإن الجبالُ والقفارُ تتباهى وتستبشرُ بمن يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ عليها.

وإنَّ دورَ الجنةِ تُبنى بالذكرِ.. فإذا أمسكَ الذاكرُ عن الذكرِ أمسكتِ الملائكةُ عن البناءِ.

وإنَّ الذكرَ سدٌّ بينَ العبدِ وبينَ جهنمَ.. فإذا كانت لهُ إلى جهنمَ طريقٌ من عملٍ من الأعمالِ كانَ الذكرُ سدًّا في تلك الطريقِ.. فإذا كانَ ذكرًا دائمًا كاملًا كانَ سدًّا محكمًا لا منفذَ فيهِ.

وإنَّ الذكرَ يكسو الوجهَ نُضرةً في الدنيا.. ونورًا في الآخرةِ.. وإن الذاكرونَ أنضرُ الناسِ وجوهًا في الدنيا.. وأنورهم في الآخرةِ.

هذه آياتٌ كريماتٌ تُهمُّ كلَّ أحدٍ ينتظرُ الفرجَ..

الرسالةُ واضحةٌ.. الدعاءُ قد يُستجابُ.. والبشارةُ قد تأتي.. لكنَّ الطريقَ بينها وبينَ التحققِ يمرُّ بالذكرِ والثباتِ.. ليسَ بالاستعجالِ والانفعالِ.. ليسَ بالخوفِ والشكِّ والقلقِ..

ولا يزالُ العبدُ يذكرُ ربهِ عزَّ وجلَّ حتى يحبهُ فيُواليهُ.. ويشكرهُ إذا ذكرَهُ.. ويعطيهُ أفضلَ ما يعطي السائلينَ.

وإنَّ العبدَ ليأتي يومَ القيامةِ بسيئاتٍ أمثالَ الجبالِ.. فيجدُ لسانَهُ قد هدمَها من كثرةِ ذكرِ اللهِ وما اتصلَ بهِ.

زكريا.. والمسارعة في الخيرات ؟!..

﴿سَابِقُوا﴾ ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

بادرُوا إلى عملِ الصالحاتِ.. وتنافسُوا في تقديمِ الخيراتِ.. ولا تُضيِّعُوا الأوقاتَ في غيرِ فائدةٍ.

لا تُؤثِرُوا الحياةَ العاجلةَ على الآجِلةِ.. لا تَرْكَنُوا إلى الفانيةِ.. فإنما هي ظلٌّ زائل.. يعبرُ سريعاً.. ويتركُ صاحبَهُ وحيداً بينَ يدي عمله.

وإنَّ للخيرِ مضاميرَ واسعة.. ومسالكَ متعددة.. ليتسابقُ فيها الصادقونَ بكلِّ ما آتاهم اللّهُ من قدرةٍ ووسع.

منها.. سقيا الماء واطعامُ الجائعين.. والعونُ على سدادِ الدَّينِ ورفعِ الظلمِ.. وإسعادُ الحزينِ وإغناءُ الفقيرِ وإيناسُ الغريبِ.. وعلاجٌ وتخفيفُ أعراضِ المريضِ.. وتأمينُ الخائفِ وإعانةُ العاجزِ والضعيفِ.. وزيارةُ المريضِ والإحسانُ إلى الجارِ وقراءةُ القرانِ.

فكن كما كانَ زكريا عليهِ السلامِ واقتدي بهِ.. كان أنفعُ الناسِ في أماكنهِ التي وضعهُ اللّهُ فيها.. فكن أنفعُ الناسِ في أماكنكَ التي وضعكَ اللّهُ فيها.

فالمؤمنُ كالمطرِ أينما وقعَ نفعٌ.. وإذا أقبلَ استبشرَ الناسُ.

يقول اللهُ تعالى:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾

هذا طرفٌ من آيةٍ.. جاءتْ لتحكي كيفَ كانتْ حياةُ نبيِّ اللهِ زكريا في العمومِ.

لقد شهدَ اللهُ بنفسهِ لهذا الرجلِ وزوجتِهِ أنهما من الصالحينَ..

وعلَّقَ على استجابتهِ لدعواتهِ التي دعاها بهذا التعليقِ:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾

لتكونَ بمنزلةِ التعليلِ لما قبلها من نصرٍ واستجابةِ دعاءٍ.

لم تكنْ حياةُ النبيِّ وزوجتِهِ قبلَ الدعاءِ فارغةً.. بل كانوا في عملٍ دؤوبٍ.. يسارعونَ في العملِ للهِ والعملِ للعبادِ ويبادرونَ فيها مبادرةَ السباقِ.. حتى تكادَ ترى وتشعرُ في الآيةِ باندفاعِهم الطيبِ المباركِ لعملِ الخيراتِ من كلِّ وجهٍ وفي كلِّ وقتٍ ولكلِّ أحدٍ.. وكانَتْ هذه المسارعةُ سببًا كبيرًا لإكرامِ اللهِ لهما غايةَ الإكرامِ.

وما أجملَ من ذكرِ اسمهِ في كتابِ اللهِ المنزلِ والثناءِ عليهِ؟!

وما أفضلَ من أن يكونَ مجابُ الدعاءِ يكفيهِ اللهُ حاجاتهُ هوَ وزوجتِهِ؟!

هذه صفةُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ..

لا يتعاجزونَ ولا يتكاسلونَ طمعًا فيما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وإنَّ للخيرِ أهلاً كرماءُ على اللهِ.. رجالًا ونساءً لا ينفكُّ عنهمُ الخيرُ ولا ينفكونَ عنهُ..

تجد الواحد منهم يعطي مما في يدهِ وإن قلَّ.. ويؤثرُ غيرُهُ وهوَ أحوجُ.. معروفًا باللينِ، إذا تكلّمَ أراحَ.

يفرّجُ كربةً.. يُسكّنُ خوفًا.. ويحتملُ أذى الناسِ.. ويرى ذلك من العبادةِ.. ويراهُ عندَ اللهِ عظيمًا.

سباقُهُ في الخيرِ أعمالًا تُروى وقصصًا تُحكى.

إذا لاحَ لهُ الخيرُ اقتحمهُ.

لا تردّدْ.. لا ينتظرْ مزاجًا.. لا يشترطْ وضوحَ النتيجةِ.. فالخيرُ إذا تُركَ حتى يُناقَشَ ربما ضاعَ..

وزكريا وأهلُ الخيرِ كلهمُ مُدحوا لأنهم سبقوا.. سبقوا الأعذارَ.. سبقوا ترددَ النفسِ.. سبقوا فتورَ القلبِ.. سبقوا الناسَ كلهمُ.. هم في القرآنِ السابقونَ السابقونَ.. أولئكَ المقربونَ.

ولكي ندركَ من هوَ زكريا عليهِ السلامِ وما جزاءُهُ عندَ ربِّ العالمينَ في سباقاتِ الخيرِ..

لا بدَّ أن نذكرَ ما وَردَ في كتبِ الآثارِ والتاريخِ:

إنَّ اللَّهَ لَيَبْعَثُ المَعْرُوفَ يَوْمَ القِيامَةِ في صُورَةِ الرَّجُلِ المُسافِرِ.

فَيَأْتِي صاحِبَهُ إذا انْشَقَّ قَبْرُهُ.. فَيَمْسَحُ عَنْ وجْهِهِ التُّرابَ ويَقُولُ: أبْشِرْ يا وِلِيَّ اللَّهِ بِأمانِ اللَّهِ وكَرامَتِهِ.. لا يَهُولَنَّكَ ما تَرى مِن أهْوالِ يَوْمِ القِيامَةِ.

فَلا يَزالُ يَقُولُ لَهُ: احْذَرْ هَذا، واتَّقِ هَذا.. يُسَكِّنُ بِذَلِكَ رَوْعَهُ حَتّى يُجاوِزَ بِهِ الصِّراطَ.

فَإذا جاوَزَ بِهِ الصِّراطَ.. عَدَلَ وِلِيُّ اللَّهِ إلى مَنازِلِهِ في الجَنَّةِ.

ثُمَّ يَثْنِي عَنْهُ المَعْرُوفُ.. فَيَتَعَلَّقُ بِهِ فَيَقُولُ: يا عَبْدَ اللَّهِ مَن أنْتَ؟ خَذَلَنِي الخَلائِقُ في أهْوالِ القِيامَةِ غَيْرَكَ فَمَن أنْتَ؟

فَيَقُولُ لَهُ: أما تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لا.

فَيَقُولُ: أنا المَعْرُوفُ الَّذِي عَمِلْتَهُ في الدُّنْيا.. بَعَثَنِي اللَّهُ خَلْقًا لِأُجازِيَكَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ.

سبحانَ اللهِ.. ما نفعلهُ في الدنيا.. نلاقيه في الآخرةِ..

كم لزكريا عندَ اللهِ من أجرٍ كريمٍ ونعيم.

والحمدُ للهِ.. أبوابُ المعروفِ مفتوحةٌ.. ننافسُ فيها زكريا وعلماءَ البرِّ ونساءَ الخيرِ.

والحمدُ للهِ.. لازلنا أحياءً نرزقُ وأعطينا الفرصةَ للمنافسةِ.

طوبى للسابقينَ في كفالةِ اليتيمِ وتعويضِ الفقيدِ.

طوبى للمسارعينَ في عونِ المحتاجينَ وعون من طلبَ العونِ.

طوبى للقائمِ على حاجاتِ بيتهِ وحاجاتِ من عجزَ عن القيامِ بحاجاتهِ.

طوبى لأهلِ جبرِ الخواطرِ والراحمينَ بالنساءِ والضعفاءِ.

سبقَ أهلُ الدعوةِ إلى اللهِ وهداةِ العصاةِ.

سبقَ أهلُ الجهادِ ونصرةِ المظلومِ.

سبقَ أهلُ المعروفِ وإدخالِ السرورِ.

جعلنا اللهُ منهم.

للهِ دَرُّ زكريا عليهِ السلامِ.. ما أسبقَهُ في الميادينِ..

شهدَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ بنفسهِ أنهُ من أهلِ الخيرِ والمعروفِ.

والمتأمّلُ في مسارعتهِ في الخيراتِ يجدُ أن أعظمَ ما راهنَ عليهِ وأوثقَ ما تعلقَ بهِ.. هو السبقُ فيما فرضَ اللهُ.

كانَ أكثرُ الناسِ لزومًا للمحرابِ في الفروضِ والنوافلِ.. مقيماً فيهِ بالقلبِ والجسدِ.

أكثرُ الناسِ لزوماً للذكرِ.. أدومُ الناسِ على الدعاءِ.

أكثر الناس رغبةً فيما عندَ اللهِ من جناتٍ عرضَها السماواتُ والأرضُ.

أكثر الناس رهبةً من نارٍ وقودُها الناسُ والحجارةُ.

وقد وعدَ اللهُ تعالى كلَّ منافسٍ بعظيمِ الجوائزِ.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قال الله عز وجل:

ما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أفضل من أداء ما افترضتُ عليْهِ.. وما يزالُ يتقرَّبُ عبدي إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أحبَّهُ.. فإذا أحببتُهُ.. كنتُ سمعَهُ الَّذي يسمعُ بِهِ.. وبصرَهُ الَّذي يبصرُ بِهِ.. ويدَهُ الَّتي يبطشُ بِها.. ولئن سألني لأعطينَّهُ.. ولئن دعاني لأجيبنّه.. ولئن استعاذَني لأعيذنَّهُ.

ومن أكبر الخيراتِ التي كانَ يسعى لها زكريا عليهِ السلامِ..

أنهُ كانَ نجارًا يأكلُ وينفقُ من كسبِ يدهِ.

وكانَ يكفلُ مريمَ العابدةَ عليها السلامِ في محرابِها.. يسأل عن قوتِها، ويطمئن على خلوَّتِها.. ويحرُسُ سكنَها وسكينتَها.. لا يقصرُ في كفالَتِه وخدمتِه لها.. يعلمُها آياتِ اللهِ والحكمةِ.. ويوفرُ لها المناخَ المناسبَ للعبادةِ.

ويهتمُ بشؤونِ زوجتِه وبيتِه.. لا يرى خدمةَ الأهلِ شاغلًا عن العبادةِ بل عبادةً أخرى.. يعرفُ أن زوجتَهُ أمانةٌ والصبرُ معها وعليها قربةٌ للهِ.. والإحسانُ إليها من أعمالِ البرِّ.. ونفقاتهُ في بيتهِ صدقاتٌ وخيرٌ مما ينفقُه في سبيلِ اللهِ.

كانَ قائمًا على حاجاتِهم.. لا ينتظرُ أن يُسألَ.. ولا يُؤخِّرُ المعروفَ حتى يُطلَبَ.

يعرفُ مواضعَ النقصِ قبل أن تُقالَ ويجبرُ الخللَ.. يستميتُ في العطاءِ والإحسانِ عليهِ السلامِ.

كم كانَ يتمنى المرءُ أن يلقى زكريا ويرى كيف تُجمعُ بحارُ الحسناتِ قطرةً قطرةً.. ويسمعُ حديثَهُ عما أفاضَ اللهُ عليهِ من خزائنَ الأجرِ.

فقد علمنا من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن كُلَّ معروفٍ صدقةٌ.. وكُلُّ ما أنْفَقَ الرَّجُلُ على نفسِه وأهلهِ كُتِبَ لهُ صدقةٌ.. وما وقى بِهِ عرضَهُ كُتِبَ لهُ بِهِ صدقةٌ.. وأن كلَّ معروفٍ إلى غنيٍّ أو فقيرٍ فهو صدقةٌ.

وتعلمنا من ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه:

يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ أعرَى ما كانوا قطُّ.. وأجوعُ ما كانوا قطُّ.. وأظمأُ ما كانوا قطُّ.. وأنصَبُ ما كانوا قطُّ.

فَمَن كَسَا للهِ عزَّ وجلَّ كسَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.. ومن أطعمَ للهِ عزَّ وجلَّ أطعمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.. ومن سقَى للهِ سقاهُ اللهُ.. ومن عمِلَ للهِ أغناهُ اللهُ.. ومن عَفا للهِ أعفاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

كم لزكريا عليه السلام من سهامٍ في كلِّ ما سبق..

كم يغبطه المرءُ على ثناء الله عليه.. وعلى أعماله العظام.. ويتمنى حياةً مثلَ حياته.. وجزاءً مثلَ جزائه.

وكم يتمنى المرء أن يلقاهُ فيقول لهُ:

قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

أهلُ المعروفِ في الدنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ..

وأنهُ قيلَ في تفسيرِها:

إذا كانَ يومُ القيامةِ جمعَ اللّهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ.. ثمَّ أمرَ مناديًا يُنادِي: ألا ليَقُمْ أهلُ المعروفِ في الدنيا.

فَيَقُومُونَ.. حتّى يَقِفُوا بينَ يدي اللّهِ.

فَيَقُولُ اللّهُ: أنتم أهلُ المعروفِ في الدنيا؟ فَيَقُولُونَ: نعمْ.

فَيَقُولُ: وأنتم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ.. فَقُومُوا معَ الأنبياءِ والرُّسُلِ.. فاشفعُوا لمن أحببتم فَأدْخِلُوهُ الجَنَّةَ.. حتّى تُدْخِلُوا عليهمُ المعروفَ في الآخرةِ كما أدخلتُم عليهمُ المعروفَ في الدنيا.

هنيئًا لزكريا عليه السلام.

كم يتمنى المرءُ أن يلقاهُ في الجنةِ.. ليسمعَ منه شخصيًا ما كانَ يفعلهُ من خيرٍ في الدنيا.. وما كان يصبرُ عليهِ من الأذى.. وماذا أحسَّ حين نادى اللّهُ عزَّ وجلَّ: ليَقُمْ أهلُ المعروفِ في الدنيا.

ومن ميادينِ الخيرِ التي رمى فيها زكريا بسهامهِ..

أنهُ كانَ خادمًا لبيتِ المقدسِ.. عاشَ عمره يحفظُ له قدسيتَهُ وهيبتَهُ وأدبَهُ.. يشرف فيه على شؤون العبادة ويرعى قلوب المصلين الواقفين بين يدي اللّه.. ويزكيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ.. ويحكم فيهم بأمرِ اللّه.

كان أنفعُ الناس للناس.. نبيًّا وإمامًا وعالِمًا مربّيًا.. ذو وجهٍ طلقٍ وقلبٍ سخيّ.. شأنه شأنُ الأخيار.

هذا هوَ زكريا..

الذي سبقَ الدنيا إلى الخيراتِ.. وسبَقَها إلى الفرائضِ والنوافلِ.. وسبَقَها بتركِ الحرامِ قبلَ أن تسبقهُ إليهِ.. حتى بلغَ منازلَ الجنةِ العاليةِ.

وَنَحْنُ الْيَوْمَ لَازِلْنَا فِي الدُّنْيَا.. وَلَنَا فِيهَا سِبَاقٌ طَوِيلٌ.. يَنْتَهِي بِلِقَاءِ اللهِ.. فَيَا قُرَّةَ عَيْنِ مَنْ قَدَّمَ الْيَوْمَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ وَيَسْتَطِيعُ مِنْ مَالٍ وَجُهْدٍ وَوَقْتٍ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَنَفْعِ النَّاسِ.. فَلَمْ يَنْدَمْ غَداً طَرْفَةَ عَيْنٍ عَلَى شَيْءٍ أَنْفَقَهُ فِي الدُّنْيَا حِينَ يَرَى ثَوَابَهُ مَاثِلاً بَيْنَ يَدَيْهِ.. وَيَحْمَدُ اللهَ الَّذِي وَقَاهُ شُحَّ نَفْسِهِ لَحْظَةَ أَنْ تُفَتَّحَ لَهُ أَبْوَابُ الْقُصُورِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَيَرَى الْوِلْدَانَ الْمُخَلَّدِينَ.

حَقٌّ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَدْخُلَ هَذَا السِّبَاقَ.. ولا يرتاحُ لهُ بالٌ حتى يسبِقَ فيهِ.. وَلَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ دُونَ الْمَقَامَاتِ.

فلا يسبِقَكَ أحدٌ إلى الخيرِ.

لا يسبِقَكَ أحدٌ إلى الصلاةِ والنوافلِ والصيامِ والذكرِ والزكاةِ والجهادِ وسائرِ العباداتِ.. لا يسبِقَكَ أحدٌ في إعطاءِ الفقراءَ والمساكينَ.. وتربيةِ الأبناءِ والبناتِ على منهجِ اللهِ.. نافس في طلبِ العلمِ وإعمارِ المساجدِ.. في إنجازِ العملِ إنْ كنتَ موظَّفًا.. والفصلُ في الشكاوى والرحمةِ بالموظفينَ إن كنتَ مديرًا.

نافس في الصدقةِ وصلةِ الرحمِ.. صل من قطعكَ.. أعطِ من حرمكَ.. واعفِ عمن ظلمكَ.

فإنَّ صنائعَ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ.. والآفاتِ.. والهلكاتِ.

هكذا كانوا ؟!..

هكذا كان دعاؤهمُ..

لا أدري كم ارتاح زكريا بعد أن جلس مع اللهِ يقولُ لهُ:

أنا العاجز الضعيفُ الذي امرأتُهُ عاقرٌ.. أنا الذي بلغ من الكبرِ عتياً.. أني خفت الموالِيَ.

ثم كأني به فرحاً مسروراً بعدما جاءته رحمةُ اللهِ يقولُ لنفسهِ:

أنا العاجز الضعيفُ الذي امرأتُهُ عاقرٌ.. الذي بلغ من الكبرِ عتياً..

أُوهَبُ ولداً؟

يستشعرُ أنه قد وهب هبةً عظيمةً من اللهِ.. فتعظمُ عنده النعمةُ وتكونُ لها مكانةٌ خاصةٌ في قلبهِ.. واللهُ يحبُ ان يرى العبدُ نعمهُ عظيمةً.. وأن يرى نفسَهُ في مقامِ انه لا يستطيعُ شكرَها.

كم فُتحَ للداعينَ من أبوابِ الراحةِ والسكونِ.

تأمّل ابتسامةَ الرضا على وجوههِمُ.. وتأمّل كيف تغلبُ الثقةُ باللهِ على حديثهِمُ.. وانظر ليقينهِمُ في دعواتهِمُ المرفوعةِ.

انظر كيف يعودون من محاريبهِمُ في منتهى الراحةِ والاطمئنانِ على المستقبلِ بعد الدعاءِ.

انظر كيف يستبشرون بالمحنةِ والحاجةِ التي تأخذهُمُ إلى بابِ اللهِ الكريمِ.. ترى في أعينهِمُ أثر الحياةِ الطيبةِ مهما اضطربت الاحوالُ.

إنما هي المعيةُ وإلقاءُ المحبةِ.. وإنزالُ القلبِ منزلَ الرضا في الرخاءِ والبلاءِ.. والقناعةُ بالإجابةِ.

كم يستشعرُ الإنسانُ من عظمِ النعمةِ حين يجدُ رحمةَ اللهِ تقابلُ تقصيرَهُ وانعدامَ أسبابهِ وفقرَ يديهُ.

كم يستشعرُ الإنسانُ من عظمِ النعمةِ حين ينظرُ حولَهُ فيرى نفسَهُ في قلبِ الدعواتِ المستجابةِ.

فكم تحتاجُ انت من الدعاءِ؟

ومتى تأخذُ الدعاءَ على محملِ الجدِ وقد علمتَ أنه لا يردُ القدرَ إلا الدعاءُ، وأن اللهَ لا يردُ دعاءً دون اجابةٍ؟

أخافُ عليكَ من فتنةٍ مفجعةٍ أو فقراً منسياً.

اخافُ عليكَ من غناً مفسداً أو موتا مُجهزاً.

اخافُ عليكَ أن تشتكي لمَ لا يعطيني؟ لمَ لا يرزقني؟

فيقالُ لكَ: إنكَ ما سألتَ.. وإن كنتَ سألتَ أعطيناكَ.

أخافُ عليكَ أن تقولَ: نسيتُ.. فيقالُ لكَ: اليومَ ننساكَ كما نسيتَ.

ألا إن اللهَ قدّم لكَ من قبلَ أن تسألَهُ.. ألا إنه اجتباكَ واصفاكَ وجعلَكَ على عقيدةِ الأنبياءِ دون أن تسألَهُ.. فاسألَهُ فإنه يحبكَ أن تسألَهُ.. إني اخافُ عليكَ أن تظنَ فيه عكسَ ذلكَ.

ولا تحزن إن جُرحت اليومِ..

فإنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا ساقَ له من البلاءِ ما يفتحُ له أبوابَ الدُّعاءِ.

وكفى بأحوالكَ اليوميةِ — وإن بدت عاديةً — دافعاً للدعاءِ.

كفى بفقدِ الأحبابِ وتعبِ التعلمِ والعملِ وأوجاعِ المرضِ.. كفى بالجوعِ والعطشِ والسفرِ والخوفِ والقلقِ.. كفى بالشوقِ إلى لقاءِ اللّهِ والجنةِ والرغبةِ في التخلصِ من كدرِ الدنيا.. أن تسوقَ العبدَ لأبوابِ التضرعِ والدعاءِ..

إن هذا ما يشفي به اللّهُ الجروحَ ويجبرُ به الكسورَ.. وما خُلقت الدنيا إلا على كبدٍ وامتحانٍ واختبارٍ.. فلا تفوّت على نفسِكَ الدعاءَ في مثلِ هذه الأحوالِ.. فإني لا أرى هذا إلا تفويتاً للفرصِ الكبيرةِ.. وإضاعةً لرسائلِ الرحمةِ التي هي أبوابُ الدخولِ في رحابِهِ.

قال كعبُ الأحبارِ:

سأل موسى ربَّهُ أين أجدُكَ؟

فأجابه اللّهُ عز وجل: أنا جليسُ من ذكرني.. وحيثما التمسني عبدي وجدني يا موسى.. أنا عند المنكسرةِ قلوبُهُمُ.

ومما يبعثُ القلبَ ويشجعُ على الدعاءِ:

تخيل نتيجةَ الإجابةِ.. والعيشَ معها بالقلبِ والخيالِ.

وحُب التوسلِ إلى اللّهِ بما يحبُّهُ.. كإقامةِ الدينِ الذي من أجلِهِ خلقنا.. كدعاءِ زكريا عليه السلامِ.

فبماذا ستحققُ أحلامَ الدينِ والدنيا ان لم يكن بدعاءِ صاحبِها ومالكِها؟

أدعُ اخي.. ربح بيعُ اليومِ بدعوةِ الأمسِ.

إن كنت تتوقعُ من الناسِ شيئاً فقد أنزلتَهُمُ في غيرِ منازلِهِمُ..
وإن أمنت من نفسِكَ الخطرَ فقد سلمت نفسَكَ لعدوِكَ.

هكذا كانوا يسارعون في الخيرِ..

في كتابِ اللهِ حكمةٌ لا تُحكى إلّا لمن يفتحُ قلبَهُ قبل بصرِهِ.

حين ذكر اللهُ زكريا عليه السلامِ وزوجتَهُ قال:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾

هنا يجعلُ اللهُ الاستجابةَ لها سبباً يليقُ بالأولياءِ.

إنهم كانوا يسارعون في الخيراتِ.

ثناءٌ من بعدِ ثناءٍ أن يشهدَ لهم الربُّ بنقاءِ القلبِ وسخاءِ اليدِ.

قد جَمَعَا بين البصيرةِ بخِسةِ الدنيا وفسادِها.. وبين صدقِ الحاجةِ إلى رحمةِ اللهِ.. والثقةِ في فضلِهِ.. وبين الرهبةِ من أن تُفلت لحظةُ الخيرِ من بين أيديهم.. ودفءِ التوكلِ عليهِ.

فسارَعوا.. قبل أن يسكتَ الجسدُ.. قبل أن يسكنَ الزمنُ.

فأنعمَ اللهُ عليهم بما هو أعظمُ.

وقد نزلت البشرى لزكريا أنه سيولد له الولدُ من زوجته وليس من غيرها لمنزلتها عند الله عز وجلَ.

وقد أثنى الله عليها في آياتهِ وأشركها معه في المدحِ لكثرة خيرها.

وولادتها لعبدٍ صالح ونبيٍ من عبدٍ صالح ونبي لمنزلةٍ خاصةٍ.. وتكريماً لها.

فقد شاركت زكريا الرحلةَ الطويلةَ والآلآمَ والمتاعبَ.. وكانت شريكةَ العبادةِ والصبرِ والدعاءِ.. وهي شريكتهُ في اعمالِ الخيرِ.

والولادةُ منها يجد فيها زكريا نعمةً أعظمَ من أن يكون الولدُ من غيرها.

ما بلغهما من فضلٍ كان بخِفّةِ القلوبِ حين تُدعَى إلى اللّهِ.

كانا يسارعان في الخيراتِ لأنهما عَلِما أن الله لا يُقابل الخطوةَ إليه إلا بما هو أعظمُ منها.. ومن أسرع إلى اللّهِ أسرع الله إليه.. ومن بادر بالخيرِ وجد الأبوابَ تُفتح له من حيث لا يحتسبُ.

وبهذه العقيدةِ سَهُلَ عليهما الخيرُ.

إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ للمعروف وُجُوهًا من خلقه.. حبب إليهم المعروف.. وحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فِعالَهُ.. ووَجَّهَ طُلّابَ المَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ.. ويَسَّرَ عَلَيْهِمْ إعْطاءَهُ كَما يَسَّرَ الغَيْثَ إلى الأرْضِ الجَدْبَةِ.. فيُحْيِيَ به الأرض وأهْلَها.

مباركٌ لهما.

من كان هذا دورهُ في الدنيا فكيف أجرهُ في الجنةِ.

ولا يُذكر الخيرُ إلا ذُكر أبو الدحداح الأنصاري رضي الله عنهُ..

لم يبخل على الله عز وجلَ حين أراد القرضَ.

ففي اللحظةِ التي قال فيها الله تبارك وتعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

قال أبو الدحداح: إني قد أقرضت ربي عز وجلَ حائطي (أي بستاني، وكان فيه ٦٠٠ نخلةً).. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: كم من عقٍ رداحٍ (أي: مثمرٍ وممتلئٍ) في الجنةِ لأبي الدحداحِ.

ولا يُذكر الخيرُ إلا ذُكر صاحب رسول اللّهَ..

أبو بكر الصديق رضي الله عنهُ.

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليراجع مع أصحابه أعمالَ الخيرِ التي عملوها اليومَ.. فعدّ للصديق أربعةَ أعمالٍ كبارٍ في يومٍ واحدٍ: عاد مريضاً.. وأطعم مسكيناً.. وتبع جنازةً.. وقد أصبح اليوم صائماً.. ولم ينتهي اليومُ بعد.

ولا بُد أن يُذكر الفخمُ الجليلُ.. عدي بن حاتمٍ.

الذي وصل إلى منتهى رجوحِ العقلِ وفقهِ الأولويةِ.. وأختار أن ينافس في أعلى درجةٍ من درجاتِ الخيرِ.. في النورِ الأكبرِ وخيرِ موضوعٍ.. ألا وهو الصلاةِ.

يقول الفخم الجليل: ما أقيمت الصلاةُ منذ أسلمت إلاّ وأنا على وضوءٍ.. وما دخل وقتُ صلاةٍ إلاّ وأنا مشتاقٌ إليها.

لقد ذكرني بعامر بن عبد الله بن الزبير رحمه الله.. الذي وصل قلبهُ من تقديس صلاةِ الجماعةِ إلى مكانةٍ لا نعرفها.

كان في مرض موتهِ عندما سمع المؤذن لصلاة المغربِ.. فقال لمن حوله: أحملوني إلى المسجدِ.. لا أسمع داعي الله إلا أجيبهُ.. فأدخلوه في الصف مع الإمامِ، فركع ركعةً ومات وهو يصلي.

ولا بد أن نذكر اصحاب الخيرِ الكبارِ.. الأشعريينَ..

الذين قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم مني وأنا منهمُ.

كانوا إِذَا أرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ.. أَوْ قل طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ.. جَمعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ.. ثُمَ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بالسَّويَّةِ.

ولا يمكن أن ننسى الكلماتِ الخالداتِ للعباسِ..

وهو يعلم ابن أخيه ويقول له:

لأن يُرى ثوبكَ على صاحبكَ خيرٌ من ان يرى عليكَ.

ولأن ترى دابتكَ تحت صاحبكَ خيرٌ من ان ترى عليكَ.

قد تعلموا ذلك من الفخم المُفخَّم.. القدوة الأعظم.. صلى الله عليه وسلم.. الذي كان مشيهُ في حاجةِ أخيهِ المسلمِ أحَبُّ إليّهِ من أنْ يعتكِفَ في المسجدِ شهْرًا.

نفوسٌ عظيمةٌ.. يتعاظم إيمانها وقت الضيقِ.. وقت المشاركةِ.. وقت كسر الأَثَرَةِ (الأنانيةِ).

شعارهم: اللّهُ في عونِ العَبدِ ما كانَ العَبدُ في عونِ أخيهِ.. ومن مشى مع أخيهِ في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له.. ثَبّتَ اللّهُ قدمَيهِ يومَ تزولُ الأقدامُ.

هكذا كان تسبيحهمُ..

ذكر الله عز وجلَ.. باب من أبواب الرحمةِ الأوسعِ.

لذلك أمر به زكريا.. وأمر زكريا به أهلهُ.. وجعلهُ لنا في كتابه آية.. نستنيرُ بها ونقتدي.. لعلنا نردُ على نفسِ النبعِ الذي اغترفَ منهُ زكريا من رحمةِ الله.. وحَظيَ بفيضِ رضوانِهِ العظيمِ.. وهل أنقذَ يونُسَ عليه السلامُ من بطن الحوتِ إلا التسبيحُ؟

سبِّح اللّهَ.. شكرًا له واعترافًا بفضلهِ.. وتنزيهًا لكمال قدرتهِ عن العجزِ عن الإجابةِ.. وتنزيهًا لكمال علمهِ أن يعزب عنه ما بداخل صدرك.. وتنزيهًا لكمال رحمتهِ أن يترك عبدهُ بائسًا، وإنما يرحمهُ بأنواعِ الرحماتِ.

ولا يخدعكَ الشيطانُ ان الوقتَ لا يتسع لتسبيحٍ ودعاءٍ..

فإن لك في سنةِ رسول الله ما يجمع لك هذا كلهُ.

إن خرجت من هذا كله بأذكارِ الصباحِ والمساءِ فقد خرجت بالشيء العظيمِ.. من داوم عليها كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ عند قول العلماءِ.. وفيها أشد ما تحتاج اليه من دعاءٍ وأعظم ما قد تقولهُ من ثناءٍ.. فتمسك بها فإنها الأمانُ من وحشيةِ الدنيا وضغوطِ الحياةِ.. وتسد مداخلَ الشيطانِ.. وفيها أحلامُ الدنيا والآخرةِ.. ولا ضير إن دعوت معها بدعواتكَ الخاصةَ.

وأوصيك أوصيكَ.. ألقِ هاتفكَ عنكَ مُد ذراعكَ.. سبب الغفلاتِ والعثراتِ.. لن تجد خيراً ولا وقتاً طالما التصق بيدكَ.. هذا ما يجعل الوقتَ لا يتسع لتسبيحٍ ودعاءٍ.

وهكذا كانت صلاتهمُ..

كان زكريا حاضراً للصلاةِ دوماً.. لا ينتظر أن ينادى عليهِ.

لا شيء في الدنيا أهم من الوقوفِ بين يدي اللّهِ.

لا شيء تدنو فائدتهُ من فائدةِ الصلاةِ.

ولو راجع المؤمن نفسَهُ كل مرةٍ.. يجد اغلب ما شغلهُ عن الصلاةِ لم يكن هاماً على الإطلاقِ.. ولا وزن له في الميزانِ مقابل وزنِ الصلاةِ.

فإن كان كذلكَ.. أخذ على نفسهِ عهداً أن يقوم لها دون أن يخاصم نفسَهُ ولا يجادلها.. دون ان يدخل في مفاوضاتٍ طويلةٍ مع الشيطانِ.

ما يُقطع لأجل اللّهِ.. لا يضيعُ.

وما يُؤجَّل لأجل اللّهِ.. يُبارَك فيهِ.

فإذا قام إلى الصلاةِ قام في سكينةٍ بلا عجلةٍ.

وعلم أن القلبَ إذا ثقل عن الصلاةِ فذلك لأن شيئًا ما في الدنيا صار أثقل من اللازمِ.

فلا تقدم للصلاةِ الخوفَ والحذرَ.. هي ميزانكَ الذي تزن به كل شيء.

لن تضيع وقتكَ.. بل ستعيد ترتيبَهُ.. ولن تقطع سعيكَ.. بل ستصحّحهُ.

هكذا تكون الصلاةُ برهان صدقهِ على أن الله أولى من كل ما سواهُ.

فمتى تدرك ان أهم عهدٍ في حياتكَ الصلاةُ وأن ما تنشغل به زائلٌ وأنها فانيةٌ؟

ألا بُدَّ مِن ميتَةٍ في صَرفِها عِبَرٌ.. وَالدَّهرُ في صَرفِهِ حَولٌ وَأَطوارُ؟

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ.. فلا يُغرُّ بطيب العيشِ إنسانُ.

هي الأيامُ كما شاهدتها دُولٌ.. مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ.

وأين حمصُ وما تحويه من نزهٍ؟ ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ.

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهمُ.. واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ.

لِمِثْل هَذا يَبْكِي القَلبُ منْ كَمَدٍ.. إنْ كَانْ فِي القَلْبِ رُوحٌ وَإِيْمَانُ.

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ.. إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ.

وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ.. ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ.

#حمص.. إسبانيا حالياً.

خاتمة الرحلة ؟!..

لا غِنىً عَنِ الدُّعاءِ أَبَدًا..

هُوَ العِبادَةُ.

لا يَضيعُ دُعاءٌ واحِدٌ عِندَ اللهِ قَطُّ.. سَواءٌ قَصُرَ الدُّعاءُ أَو طالَ.. وَلا يَضيعُ أَبَدًا رِجالُ الدُّعاءِ.

وَمَن أَمَرَ بِإِكرامِ الضَّيفِ أَولى أَن يُكرِمَ ضَيفَهُ الَّذي يَرفَعُ إِلَيهِ يَدَهُ يُحسِنُ الظَّنَّ فيهِ.. حاشاهُ أن ترجِعَ الأيدي بلا نِعَمِ.

فَأَينَ تَذهَبُ دَعَواتُكَ؟

تَذهَبُ الدَّعوَةُ الواحِدَةُ بَينَ ثَلاثٍ أدناها شَديدُ الحَلاوَةِ:

وهو أَن يَستَجيبَها اللهُ لَكَ كَما سَأَلتَ.

وَأَوسَطُها لَمسَةٌ مِنَ الرَّحمَةِ:

أَن يَحفَظَكَ مِن شَرٍّ كادَ أَن يُصيبَكَ.. أَو يُصيبَ مالَكَ.. أَو أَهلَكَ وَعِيالَكَ.

وَلا تَزالُ الدَّعوَةُ الصّاعِدَةُ تُصارِعُ البَلاءَ النّازِلَ فَلا يَنزِلُ أَبَدًا إِلى يَومِ القِيامَةِ.. أَو يُعَوِّضَكَ اللهُ بِخَيرٍ مِنها إِن رَأى في غَيرِها ما يُصلِحُكَ.

وَأَعلاها لا يخطر على قلب بشر في جَنَّةِ الخُلدِ:

أَلّا يُعطيكَ إِيّاها في الدُّنيا.. وَيَدَّخِرُها لَكَ يَومَ لا يَنفَعُ مالٌ وَلا بَنونَ.. عَلى صورَةٍ تَزيدُ وَتَفيضُ في الميزانِ في كِفَّةِ الحَسَناتِ.. ثُمَّ يُعطيكَ إِيّاها هِيَ نَفسَها.. وَلَكِن.. مِمّا لا عَينٌ رَأَتْ.. وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ.. وَلا خَطَرَ عَلى قَلبِ بَشَرٍ.. مِنَ النَّعيمِ الخالِدِ الباقي.. وَيُقالُ لَكَ هٰذِهِ بِتِلكَ.. دَعوَةٌ دَعَوتَها في الدُّنيا.. أَبَى اللهُ إِلّا أَن يُمَتِّعَكَ بِها في الآخِرَةِ.

وَلا تَنسَ أَنَّ الرَّحمٰنَ يُعطي الفِردَوسَ الأَعلى بِدَعوَةٍ.. جِوارَ الَّذينَ غَرَسَ كَرامَتَهُم بِيَدِهِ في الدَّرَجاتِ العُلى.

أَلَا يُسأَلُ هٰذا الرَّبُّ القَريبُ الكَريمُ ما هُوَ أَدنى مِن ذٰلِكَ وَهُوَ عَلَيهِ هَيِّنٌ؟!

أَم أَنَّ الذَّنبَ يَمنَعُنا مِنَ الدُّعاءِ؟!

فَكَيفَ نَمتَنِعُ لِذُنوبِنا مِن دُعائِنا وَلا نَراهُ يَمتَنِعُ بِالذَّنبِ مِنَ العَطاءِ.

وَلا يَمنَعَنَّ أَحَدٌ مِنَ الدُّعاءِ ما يَعلَمُهُ مِن نَفسِهِ.. فَإِنَّ اللّٰهَ قَد أَجابَ دُعاءَ شَرِّ الخَلقِ إِبليسَ:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

أَم نَستَبعِدُ أَن يَستَجيبَ؟!

فَإِنَّ هٰذا شَكٌّ فيما أُنزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ.

أَم يَطولُ عَلَينا العَهدُ فَنَتَمَلَّلَ وَنُخلِفَ مَوعِدَهُ؟!

فَالصَّبرُ الصَّبرُ.. يُستَجابُ لِأَحَدِكُم وَلا بُدَّ ما لَم يَستَعجِلْ.. وَأَنتَ تَشهَدُ عَلى نَفسِكَ أَنَّكَ اليَومَ تعيشُ دَعَواتِ الأَمسِ.. إِن لَم يَكُن كُلُّها فَالقَدرُ الأَكبَرُ مِنها.

أَم طالَ زمنُ الإجابة؟!

فَاعلَم أَنَّهُ سُبحانَهُ وَتَعالى عَظيمُ الحِكمَةِ.. شامِلُ العِلمِ.. واسِعُ الخِبرَةِ.

قَد يُؤَخِّرُ الإجابَةَ لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ.. كَما أَخَّرَ إِجابَةَ يَعقوبَ في رَدِّ ابنِهِ يُوسُفَ عَلَيهِ وَهُوَ نَبِيٌّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.. وَمَكَثَ يُوسُفُ في السِّجنِ بِضعَ سِنينَ.

وَالدّاعِي نَبِيٌّ كَريمٌ.. يَعقوبُ بنُ إِسحاقَ بنِ إِبراهيمَ الخَليلِ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وَالمَدعُوُّ لَهُ نَبِيٌّ كَريمٌ.. يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ بنِ إِسحاقَ بنِ إِبراهيمَ عَلَيهِمُ السَّلامُ.. وَلَم يَرُدَّهُ إِلى يَعقوبَ إِلّا وَهُوَ عَزيزُ مِصرَ كُلِّها.

أَلَستَ تَقولُ في دُعائِكَ اللَّهُمَّ إِنّي أَستَخيرُكَ بِعِلمِكَ.. وَأَستَقدِرُكَ بِقُدرَتِكَ.. فَإِنَّكَ تَعلَمُ وَلا أَعلَمُ.. وَتَقدِرُ وَلا أَقدِرُ.. وَإِنَّكَ أَنتَ عَلّامُ الغُيوبِ!

فَها هُوَ سُبحانَهُ أَخَّرَها لِشَيءٍ يَعلَمُهُ.. فالصبر الصبر.

أَم تَخافُ أَن تَدعوَ فَتَغضَبَ وَتَحزَنَ إِن لَم يَستَجِبْ؟!

فَكَيفَ يَستَجيزُ العَبدُ أَن يُحاسِبَ مَن غَمَرَهُ بِآلائِهِ حَتّى استَحيا مِن جَلالِهِ!

أَم أَنَّكَ تُريدُ القُربَ؟

أَمّا الَّذي يُقَرِّبُكَ إِلى اللهِ فَمَسأَلَتُهُ.

فَادعُ اللّهَ دُعاءَ كَالمَطَرِ.. قاعِدًا وَقائِمًا وَعامِلًا وَساكِنًا وَفي كُلِّ وَقتٍ.

وَقُل لِقَلبِكَ اهدَأْ وَارتَحْ.. ما صُنِعَ مَجداً لِلأُمَّةِ إِلّا بِدُعاءِ اللّهِ.

هَل جاءَت خَيرُ نِساءِ العالَمينَ مَريَمُ عَلَيها السَّلامُ إِلّا بِدُعاءِ امرَأَةِ عِمرانَ؟! هَل جاءَ يَحيى عَلَيهِ السَّلامُ إِلّا بِدُعاءِ زَكَرِيّا؟! هَل تَرى أَمانَ مَكَّةَ وَغِناها وَخَيرَها وَهَل جاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِلّا بِدُعاءِ إِبراهيمَ عَلَيهِ السَّلامُ؟!

مَنِ استَجابَ الأَمسِ يَستَجيبُ الغَدَ.. فَلا تَحمِلْ هَمَّ إِجابَةِ الغَدِ.. وَلٰكِنِ احمِلْ هَمَّ دُعاءِ اليَومِ..

أَعظَمَ النّاسِ رِزقًا وَأَجرًا مَن أَكثَرَ الدُّعاءَ وَالذِّكرَ وَالعَطاءَ.

وَلا تَخَفْ عَلى ضَياعِ الوَقتِ..

فَالوَقتُ المَبذولُ في الدُّعاءِ يُقابِلُهُ اللّهُ بِأَعظَمَ مِنهُ.. وَالوَقتُ المَبذولُ في التَّسبيحِ يُقابِلُهُ اللّهُ بِأَعظَمَ مِنهُ.. وَمَهما كَبُرَ ما تَبذُلُهُ مِن خَيرٍ وَعَطاءٍ يُقابِلُهُ اللّهُ بِأَعظَمَ مِنهُ.

وَهٰذا ما يَجعَلُ المَرءَ شَديدَ الاطمِئنانِ لِلهِ لا يَخافُ عَلى شَيءٍ عِندَهُ.

وَلا تَغتَرَّ في سيرِ الأُمورِ عَلى ما يَرامُ..

وأنها تنصلحُ من تلقاءِ نفسها كما عهِدتَها.. فيقعدكَ ذلكَ عن طرقِ بابِ الدعاء.

فإن زَكَرِيّا عَلَيهِ السَّلامُ لَم يَترُكْ قَومَهُ وَيَقولُ سَيُنقِذُهُمُ اللّهُ.. بَل دَعا اللّهَ أَن يُنقِذَهُم.

وَلا بُدَّ أَن تَعلَمَ لِأَيِّ دَرَجَةٍ تُحسِنُ إِلى النّاسِ..

لَقَد أَمَرَ رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِشَيءٍ في مُنتَهَى الخَيرِ:

أَعطِ مَن حَرَمَكَ.. وَصِلْ مَن قَطَعَكَ.. وَاعفُ عَمَّن ظَلَمَكَ.

وَإِن كانَ هٰذا شَكلَ المُعامَلَةِ المَطلوبَةِ لِمَن أَساءَ إِلَينا.. فَكَيفَ بِمَن أَعطانا وَلَم يَحرِمنا؟! وَبِمَن وَصَلَنا وَلَم يَقطَعنا؟! وَبِمَن أَنصَفَنا وَلَم يَظلِمنا؟!

وَقالَ:

أَفضَلُ الأَعمالِ أَن تُدخِلَ عَلى أَخيكَ المُؤمِنِ سُرورًا.. أَو تَقضِيَ عَنهُ دَينًا.. أَو تُطعِمَهُ خُبزًا.

وَأَمَرَنا أَن نُنَفِّسَ كُرُباتِ المُسلِمينَ لِيُنَفِّسَ اللّهُ عَنّا كُرُباتِ يَومِ القِيامَةِ.. وَأَن نُيَسِّرَ عَلى المُعسِرينَ لِيُيَسِّرَ اللّهُ عَلَينا في الدُّنيا وَالآخِرَةِ.. وَأَن نَستُرَ عَلى المُسلِمينَ لِيَستُرَنا اللّهُ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ.

بَل إِنَّ رَأسَ العَقلِ بَعدَ الإيمانِ.. مُداراةُ النّاسِ.. أَي مُلاطَفَةُ الآخَرينَ، وَلينُ الجانِبِ، وَحُسنُ العِشرَةِ مَعَهُم.. وَحُسنُ الظَّنِّ

فيهِم، وَاحتِمالُ أَذاهُم.. وَتَجَنُّبُ الإِغلاظِ عَلَيهِم في القَولِ دَفعًا لِلشَّرِّ وَالفِتنَةِ.. دونَ التَّنازُلِ عَنِ الثَّوابِتِ الدِّينيَّةِ أَو إِقرارِ الباطِلِ.

في النِّهايَةِ..

كُلُّ عامِلٍ يَعمَلُ عَمَلًا لا يَبتَغي بِهِ إِلّا أَجرَ الآخِرَةِ.. يَلقى عِندَ اللّهِ القَبولَ.

وَأَختِمُ لَكَ بِهٰذِهِ المَنظومَةِ الرّائِعَةِ:

أَطِعْ أَمرَنا نَرفَعْ لِأَجلِكَ حُجُبَنا.. فَإِنّا مَنَحنا بِالرِّضا مَن أَحَبَنا.

وَلُذْ بِحِمانا وَاحتَمِ بِجَنابِنا.. لِنَحمِيَكَ مِمّا فيهِ أَشرارُ خَلقِنا.

وَعِشْ في حِمانا خاضِعًا مُتَذَلِّلًا.. وَأَخلِصْ لَنا تَلقَ المَسَرَّةَ وَالهَنا.

وَسَلِّمْ إِلَينا الأَمرَ في كُلِّ ما يَكُنْ.. فَما القُربُ وَالإِبعادُ إِلّا بِأَمرِنا.

وَلا تَعتَرِضْنا في الأُمورِ فَكُلُّ مَن.. أَرَدناهُ أَحبَبناهُ حَتّى أَحَبَّنا.

يُنادى لَهُ في الكَونِ أَنّا نُحِبُّهُ.. فَيَسمَعُ مَن في الكَونِ أَمرَ مُحِبِّنا.

فَيُكسى جَلالًا بِالوَقارِ لِأَنَّهُ.. أَقامَ بِإِذلالٍ عَلى بابِ عِزِّنا.

رَفَعنا لَهُ حُجُبًا أَبَحناهُ نَظرَةً.. إِلَينا وَأَودَعناهُ مِن سِرِّ سِرِّنا.

تَمَسَّكْ بِأَذيالِ المَحَبَّةِ وَاغتَنِمْ.. لَيالٍ بِها تَحظى بِأَوقاتِ قُربِنا.

وَسِرْ نَحوَنا في اللَّيلِ لا تَخشَ وَحشَةً.. وَكُنْ ذاكِرًا فَالأُنسُ في طيبِ ذِكرِنا.

سبحان ربك.. رب العزة عما يصفون.

وسلام.. على المرسلين.

والحمد لله.. رب العالمين.

فهرس

بداية القصة ؟!..... ١٠
دعوة زكريا الأولى ؟!..... ١٥
عبودية زكريا ؟!..... ٢١
الله المجيب ؟!..... ٣١
دعوة زكريا الثانية ؟!..... ٤٠
تسبيح زكريا ؟!..... ٤٥
زكريا.. والدعوة إلى التسبيح ؟!..... ٥٥
زكريا.. والمسارعة في الخيرات ؟!..... ٦٣
هكذا كانوا ؟!..... ٧٣
خاتمة الرحلة ؟!..... ٨٤

هُنا تبدأ قصةُ زكريا عليه السلام..

الذي شهدَ لهُ اللّهُ على حسن عبوديته منْ فوقِ سبعِ سماواتٍ.

واحدٌ من خيرِ من يُقتدى بهمْ على الإطلاقِ.

نموذجًا عمليًّا مثالياً على من قدَّمَ للهِ.. فقدَّمَ اللّهُ إليهِ.

وقدَّمَ اللّهُ.. فقدَّمَهُ اللّهُ.

وجعلَهُ الدليلَ على أنَّ اللّهَ يعطي الممكنَ والمستحيل.

حتى لا ييأسَ أحدٌ من سؤالِ اللّهِ.

ولا يستبعدَ أحدٌ رحمتَهُ.

وأنَّ قارعَ البابِ يُفتحُ لهُ.

وأنه إن طالَ الوقوفُ.. تعاظمَ الأجرُ في الجنةِ.

وقد قصَّ اللّهُ القصةَ ليوقنَ الناسُ أنَّ اللّهَ يسمعُ عبادَهُ.

وأنَّهُ أقربُ إليهِم مما يظنونَ.

فلا يبقى في القلبِ بعدَ ذلكَ وهمُ البعدِ.

ولا يشعرُ عبدٌ أنَّ بينهُ وبينَ اللّهِ مسافةً.